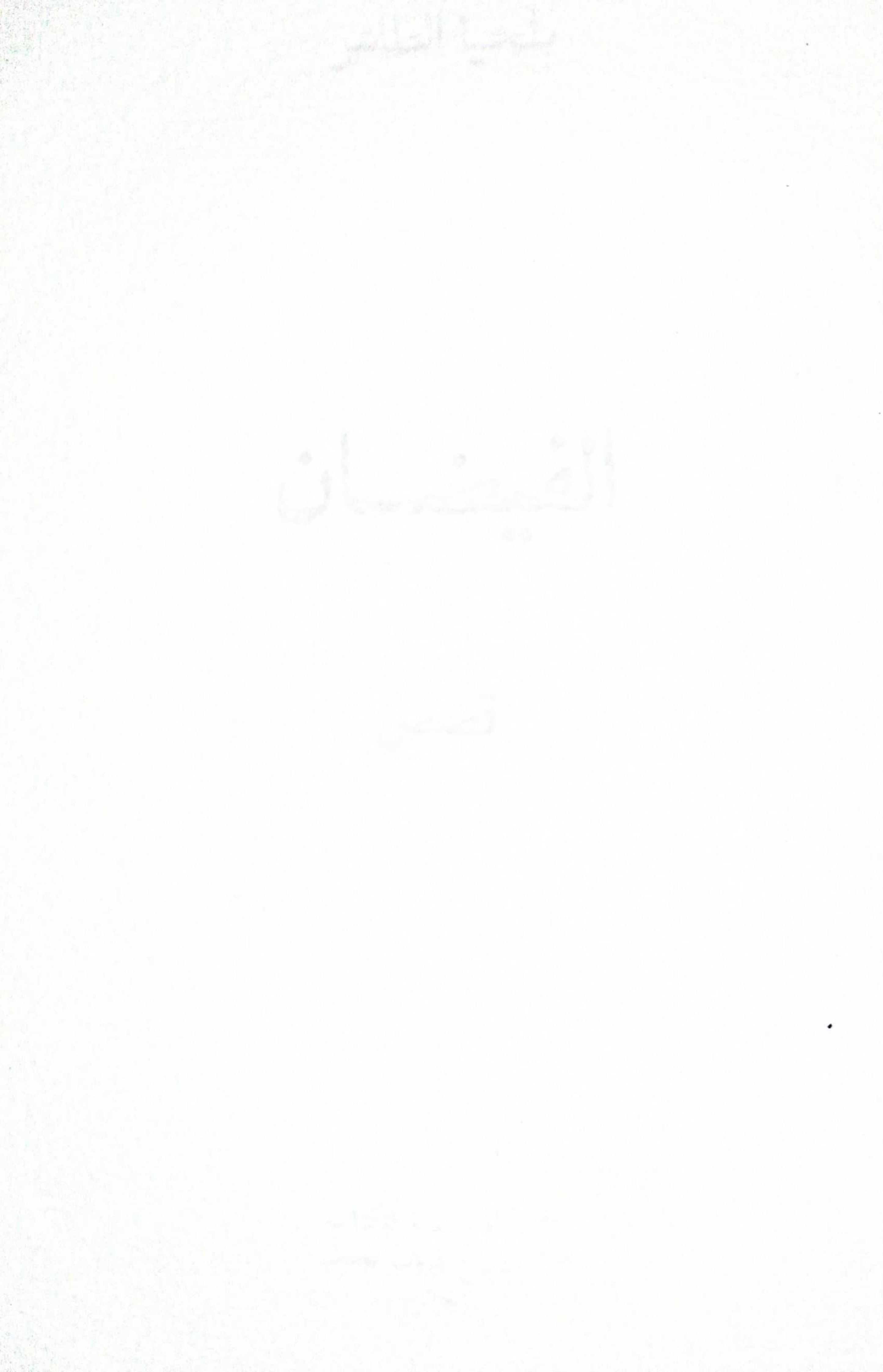
بلحيا الطاهر

الفيضان

قصص

المؤسسة الوطنية للكتاب



بلحيا الطاهر

الفيضان

قصص

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر : 85/2145

المؤسسة الوطنية للكتاب

الجزائر 1986

الاهـــداء

أمي الحبيبة الرؤوم ..:
لا أجد كلمة طيبة أبعثها لك من أعماق روحي
كهذا الفيضان الذي هزّ كيان قريتي عسلة

في هذا العالم أنت الرحيمة فقط ...انني أعزك أكثر من العالم بأكمله .

حتى من بنتيّ ، عبلة ومريم
ومن صديقيّ مخلوف عامر والحبيب السائح .
ومن شقيقيّ عبيد وبودواية ...

هـامـش ...

فلتكن أغنيتي بسيطة كطلوع الصباح
مثل الندى الساقط نقطة نقطة من الأوراق ..
بسيطة مثل ألوان الغيوم والأنواء الليلية .

لكن أوتار مزهري ، المشدود حديثا
تطلق اشاراتها القاسية مثل رماح مسنونة حديثا

هكذا لاتبلغ روح الريح وتجرح ضوء السماء .
وتناضل نبرات أغنيتي بعناء ..
لتدفع موسيقاك الخاصة .. بك ...

طاغور (أوراق الهند)

المقـــدمة

أجدني ــ في اللحظة التي أجلس خلالها لأخط هذه الكلمات ــ موزعا بين بلحيا الطاهر في عالمه القصصي المرتبط بالجبل الذي تبرره (تامدة) . وبالأرض التـي يزكيها دم الشهـداء .

انها عسلة ... !

وعسلة قرية مجاهدة . والصوت العائد اليها استمرار لوجودها ،برغم الصراع المحتدم في رحم بنات أفكاره المتجسد في التناقض بين عالم الريف ، وعالم المدينة .

وبرغم السؤال الملحاح : هل يمكن للتقاليد ــ ببلادنا ــ أن تنتصر دوما ؟ لأن الصوت صوت بدوي يحاول أن يمزق حجاب التقاليد ، يخرج من خلالها لاستقبال اشراقة الصبح الجديد ليرسم على أجنحة العصافير وجذوع الشجر البري وسعف النخيل ، ووريقات الصفصاف ، صورة الطفولة التي تحمل همّ اليتم في القلب والذاكرة .

ويظل يبحث عن وجوده ، عما يجب أن يحقق توازنه بين ما هو

بدوي ، وبين ما هو حضري ، صورة الطفولة التي تحقق انتصاره للحب على الطريقة البدوية .

وبين بلحيا الطاهر الذي أعرفه شخصيا ... شابا شهما وراقصا ماهرا(العلاوي)على طريقة عسلة هي جزء من كيانه .

وهي عنده الألم والحب . الفتوة والقوة .

هي قدرة فائقة على ترويض الجسم حتى ينصاع الى النفس الجموح الطموح الى الجمال والجلال .

فبلحيا الطاهر من خلال مجموعته هذه يبدو كمن يحاول أن يحل معادلة ذات مجهولين :

البادية بقبضة طقوسها الصلدة . والمدينة بحدة تناقضاتها المعقدة والنتيجة ــ لن تكون تمزق الطاهر ــ وذلك لأنه لن يسأل عن :

ــ أين يوجه حبه ؟

ولكن من يقرأه يقف على حقيقة هي أن من عصره من صلبه كان رضّب بدمه احدى صخور جبال (تامدة)ليكتب الطاهر هذه الأشياء الصغيرة الجميلة في ظل الاستقلال .

الحبيب السائح
سعيدة . أوت 1983 م

الصياد والكنز (1)

الاهـــداء

جبل (تامدة) العتيد
وعسلاى الحبيبة
عبيد وبودواية ونصيص ...
كلكم تعيشون في القلب
يناجيكم في كل دقة من
خفقاته ...

ب . ط .

---

(1) الجمهورية . النادي الأدبي 1 ــ 9 ــ 1979 .

ينام جبل (تامدة) العتيد في خشوع .. يستأنس لهجير الشمس الحار الذي وزعته على ربوع الأراضي الجرداء .. والرمال الصحراوية الهاجعة تعكس حرارة القيلولة لتوزعها على السهول المجاورة بالتساوي ..

انه شهر جويلية لا يعرف سخط شمسه الا سكان تلك الفيافي النائية ورحالة هذه القمم الجبلية الممتدة كالأفعى .

في وقت الظهيرة تتقيأ الشمس أشعتها الجهنمية تحرق بها هذه الأفعى المستكينة ... ويلتهب سكان الضاحية من جراء غضب الرمال والجبال العملاقة .

ـ ولعظمتهم دائما يغامرون ..!

في عنادهم البدوى يتحدون الطبيعة .. يأخذون منها كل شيء .. يلهثون ، في هذه الجبال خلف قطعانهم ، انها رأسماهم الأوحد الذي يقتاتون منه ... جلودهم أصبحت طيّعة لقساوة فيافيهم المحببة ...

المناخ المتقلب بات مألوفا عندهم ...

خيامهم قصور عظيمة تزاهي ناطحات السحاب في نيويورك وهم كلهم سعداء بواديهم حدائق غناء لم تستطع ريشة فنان طوكيو أن تحاكيها رغم قحالتها ، فقط الارتياح الروحي هو كل شيء .

* * *

في سفح تامدة الشرقي المطل على صحراء قورارة كان أربعة رجال يتهامسون في خفت .. يفتشون عن شيء ما ... يتتبعون السلسلة الجبلية في تؤدة وباشارة من أصبع (عمار) يلوذ الجماعة لصمت رهيب .

ـــ يهدأ الثلاثة ... تنعدم الحركة ...

ـــ أكيد أنه هناك .. قال عمار : وأردف .

ـــ وربما هناك .. أو هنا .

فيوميء الثلاثة برؤوسهم ايجابا ويعودون الى سكوتهم .

أدواتهم قليلة ، ولكن يحرم لمسها على الثلاثة ، الا بعد موافقة عمار هذا ما بات مألوفا بذهن السي المزوزي ورفيقيه ..

ـــ ايه السي المزوزي ...!

الصياد الماهر ، ابن هذه الربوع الخالية .. يعرف كل الصحارى الممتدة في تلك الجهة ، هو الذي عثر على الكنز ، ولولاه لما جاء أحد الى تامدة .

السي المزوزي الكهل الذي غزى الشيب مفرقه ولونه رمادى كالجبل لم تؤثر الخمسة عقود والنصف على جسده الصلب وقامته الحديدية الواقفة في تعنت ضد الطبيعة ...

رأسه لم ينتابها صداع على ما يذكر وعضلاته لم تزل تحتفظ بسمات شبابها الأول ...

يجري مع الجبال كالطفل يطارد الوحوش بقوة فارعة ، ينط كالغزال وراء قطعان المها ، لايتعجب أهل المنطقة من سرعته ، لأنه في نظرهم ابن هذه الصحارى وصيادها البارع ...

ورصاصته يقال (لا تسقط في التراب)

وذات يوم ...!

بينما كان يجري خلف غزال بري أحس بنوبة صداع في رأسه ترغمه على الوقوف ، وتحت صخرة كبيرة استلذ نوما خفيفا ، أثناء نومه رأى .

ــ رجلا حسن الثياب يرتدي عباءة بيضاء ، وبين يديه خريطة للجبل وقف أمامه ، وسأله :

ــ أنت المزوزي ...:

ــ نعم أنا هو المزوزي ...

الصياد الماهر .

ــ نعم ... قالها في تلعثم ، وأردف :

لماذا ...

ــ اجلس سأخبرك بشيء ...

جلس والخوف يسيطر على مفاصله ...

لا تخف .. قال الشبح :

ارتعد المزوزي .. حاول أن يهدىء نفسه . لم يستطع ..

ارتعش ، وتململ داخل برنوسه الوسخ ...

اصطكت أسنانه .. ارتجف .. أحس بثقل على عاتقه ..

كان يحس بعياء (صخرة سزيف) فوق عاتقه ثقيلة كهذا الشبح اللعين .

ــ جلس الشبح أمامه واضعا الخريطة على ركبتيه ...

زرع عينيه وسط الخريطة فرأى أشياء مألوفة لديه .. كل الشعاب والأودية التي تحويها (تامدة) الحبيبة في صورة واحدة ..

ــ ايه تامدة الحبيبة ...!

أمضيت فيك عمري ، ورعيت فيك الغنم سنينا طويلة وطاردت وحوشك . أفزعت الطير و .. وقطعت كذا من مرة ... قاطعه الشبح قائلا :

ـــ أنا صاحب الجبل ..

ـــ يعني انك لست آدميا ؟

ـــ اطلق عليها كما تشاء من الأسماء .

ـــ هل تعرف ...

ـــ ماذا ... قال المزوزي :

باشارة من أصبعي تتحرك كائنات غريبة عليكم لا ترونها ...

يعتبرني كل الرفاق هنا رئيسا لهذه الجهة .

ـــ المهم .. لدينا بعض الكنوز في هذا الجبل ، بعد مشاوراتنا اتفقنا على منحك كنزا منها .

ـــ طبعا باعتبارك مؤنسنا الأوحد في هذه الجهة منذ نعومة أظافرك ..

ـــ إذن لا تتوانى إنه هنالك ...!

أدار المزوزي رأسه فرأى الكنز مخفيا في نفس المكان .. الذي أشار اليه الشبح .. وراء صخرة متوسطة الحجم ..

أفاق من نومه مسرعا .. وعلى عجلة من أمره ذهب الى المكان الذي رآه في الحلم .. حدد موقعه ...

عيونه مغروزة في رحم الجبل ، بشفافية كان يرى أحشاءه .

وكان لهيب الشمس يرسل لسانا ناريا الى المنطقة القاحلة هذه .. يحرق ويخرج دم الانسان عرقا يتصبب كالجمر على الجسد الرمادي ... وجهه المتعب ملفعا كان بسمرة لونتها الشمس كزهرة ذابلة تعمل فيها الأشعة ما شاء لها أن تعمل ...

يغامر كعادته في الجبال والصحارى .. يفكر في الكنز ...سيصير في يوم ما ــ رب الجهة ــ مالا ووجاهة يكسب كل أناثها ويسترق كل رعاتها خدما له ...

يتزوج كل العذارى ... لابد من العثور على طريقة لاستخراج الكنز ربما تكون بداخله خاتم (سليمان) .

ــ تذكر المدينة ، أولاده العشرة وزوجتيه (العالية) و (الطائعة) سألبسهن كل أنواع الحرير يتجولن كل مدن العالم وفي الأخير أستبدلهن بزوجتين صغيرتين قال في نفسه ...

ــ أما الأولاد فسأدخلهم أكبر مدارس المدن .. سيتعلمون ..

ترى كيف أخبرهم ... سيفرحون كثيرا عندما يسمعون الخبر .. أما العالية والطائعة فبدون شك ستجن احداهن ...

إنها المدينة .. العالم الجميل .. لا يطحنّ ولا يعجنّ ولا يستوردن الماء فوق الحمير ..

فقط يضغطن على الزر فينهمر كل شيء كعين برية ...

ــ المدينة .. حلم المدينة ..!

وبذكره للمدينة تذكر (عمار) شيخ (الطلبة) وحكيمهم

الأوحد . لقد رآه ذات مرة في السوق .. عندما ذهب لابتياع بعض النعاج .. أخبروه بأن الرجل يجمّد الماء .. ويكتب الحروز التي تشافي الانسان دون طبيب ... ولمختلف الأمراض .. رغم صغر سنه .

ـــ هو اذن قال المزوزي في نفسه ...!

وتوجه اليه مباشرة .. دون تريث بحث عنه في كل مكان .. وجده .. أخبره .. وكان الأربعة عندما اشتد قيض الشمس يتهامسون في خفت بعد أن أوقفهم المزوزي على المكان المعين وحدد لهم موقعه ...

السيد عمار جد مؤمن بالتخصص ... يردد دائما كلمته :

ـــ (الرجل الملائم في المكان المناسب) ... فلذلك هو صاحب الموقف .

ـــ معاوناه تخصصهما .. (الحفر لا غير) .

ـــ أما السي المزوزي يبقى كخبير في معرفة الطريق وأماكن الدلالة .. رغم أنه صاحب الكنز الشرعي .. في نظره .

وضع عمار كل أدواته على الأرض ...

قصاصات أوراق بيضاء وصفراء .. وأجزاء من القصب .. وكتاب مترهل بحجم متوسط ...

وبدأ يتمتم ويشير بيده اليسرى يطلب الصمت الكلي من

رفاقه ابتعدوا قليلا انزاح كل واحد منهم بضع خطوات الى الخلف في حذر .

السي المزوزي كان ينتظر انفجار لغم ما يظهر أحشاء الجبل أو أي شيء من هذا القبيل يفرقع العالم الداخلي ...

المهم لكي ينزاح هذا الغطاء .. الطبقة الخارجية التي تختفي وراءها الكنوز العظيمة ... الموجودة في رحم الجبل .

وضع يده اليمنى على فمه وجلس بعيدا عنهم يترقب حركات عمار باعجاب ودهشة كبيرين ...

في هذه اللحظة أومأت يد عمار تعلن بداية الحفر ...

ــ فتخالف المعولان على جذع الشجرة ...

أما السي المزوزي فيده دائما تحترس فمه .. خاف أن ينبس بأدنى همسة قد لا تتقي آخرتها .. نظر الى عمار نظرات غريبة ... من أعماقه حسده على هذه النعمة التي أعطاها له الله ... كان في رأيه أحد علماء (الميتافيزيقيا) يناجي الغيب .. يستنطق الأحجار بما هو أقوى منها انه (العلم) .

ــ تذكر أولاده العشرة ...!

في قلبه جمرة تتآكل ... وتأنيب ضمير .

ــ لماذا لم أدخلهم الى المدرسة ..؟

ــ آه لو أني فعلت .. لاستغنيت الآن عن عمار هذا فرقع أصابعه غيظا .. لماذا ؟

ويمر شريط من ذكريات دامية ...

كيف ولد الطفل الأكبر .. كانت أمه الطائعة مريضة جدا المسكينة وكان الثالث نحيفا ، والسابعة انتظرنا وفاتها ..

ـــ و ... الثامنة .. والتاسع .. وو .. و

وقطعت شريط ذكرياته صرخة عمار المريبة ....!

ـــ انتظروا ....!

لقد أخطأت تعيين المكان ، وأشار بأصبعه المنتفخة :

ـــ انه هناك ، لنبدأ من جديد ...!

العرق يتقاطر على العاملين ، ولهيب الشمس لسان ناري لا يرحمهما ومع ذلك ينفذان الأوامر في وداعة ...

بدأ الحفر الثاني ، بدون أدنى شك سيأتي بنتيجة هذه المرة .. هذا مابات عالقا بذهن السي المزوزي ، والرفاق ...

ـــ حفروا و .. حفروا ..

أتعبهما الحفر ، وأحسوا الكلل يدب في أجزاء مفاصلهما وصرخ عمار في الأخير :

ـــ انتظروا ...

ـــ لقد أخطأت تعيين المكان ، وأشار بأصبعه المنتفخة ..

ـــ إنه هناك ، لنبدأ من جديد ..!

ـ العرق يتقاطر على العاملين ، ولهيب الشمس لسان ناري لا يرحمهما ومع ذلك ينفذان الأوامر في وداعة ...

ـ بدأ الحفر الثاني ، بدون أدنى شك سيأتي نتيجة هذه المدة ... هذا ما بات عالقا بذهن السي المزوزي والرفاق ...

وفي اليوم العاشر .. كان السي المزوزي منزويا عن الجماعة ، يفكر في شيء ما .. شعر ذات لحظة أن مؤونة عائلته هزلت ... التهمتها بطون الرفاق في غير شفقة ...

ابنه الأكبر أبدى صباح اليوم عدم اكتراث لعمار والمعاونين ... ثقته دخلها ريب منذ ثلاثة أيام ... بدأ يشك في شيء ما .. ولكنه التزم الحذر حتى لا يفوت فرصة الحياة ...

في نفسه قال :

ـ ربما عمار هذا يهذي لا غير ... وأردف :

ـ حاشا لله .. أستغفر الله؟

اني أطعن في العلماء بدون حياء ...!

سيحاسبني الله بدون شك ... وأردف :

ـ لكن لماذا عجز ...؟؟؟

ـ ؟؟؟ .. ؟؟؟

صحة المعاونين بدا عليها فتور ، وهزال .. قوتهما إعتراها نحف وضعف .. المعول أصبح يرفع بدون قوة فارعة كتلك التي كانت في البداية ...

عمار يجلس كثيرا الى كتابيه .. يكتب كثيرا .. وبعض الأحيان يضع رسومات على الصخور القريبة ، لا يفهمها إلا هو ...

ومرات يقرأ تحت أنفه أشياء لا يفقهها السي المزوزي ، الذي كان ينتظر شيئا ما .. يقول في نفسه :

ــ لا محالة ستنفتح الأرض ذات لحظة .. تكون هناك مغارة ندخل الى جوفها ، نجد هناك صندوقا مغلقا ربما يكون مرصعا بالذهب .. نحمله ونعود الى الخيمة .. هناك أجد الزوجتين والأولاد في استقبالنا .. تزغرد العالية وحتى الطائعة .. أذبح عدة مواشي ولا أخبر أحدا الا بعد أن أسافر الى بلد بعيد .

ويراوده هاجس :

ــ ربما هو يهذي .. ويستغفر ...

وأخيرا بدأ يشك فعليا ...

تأخرت ساعة الانفراج المنقلب .. المتوقع ...

ــ لكن لم نسمع أنَّ رجلا فتح الأرض ذات يوم ...

حتى الأنبياء .. والرسل والأسلاف لم يفتحوا الأرض ...

ــ كيف حدث كل هذا ...؟

لم أشعر لحظة بكل ما فات ...؟

تذكر عائلته .. أبناءه .. كيف أحوالهم يا رب ..؟ الطائعة والعالية والأطفال .. كلهم .

ربما تبخرت الأحلام ، وماتت الأطياف التي راودتني يوما في أن أكون غنيا ككل عباد الله .

أنا في حلم إذن ...؟

في نفسه وبصوت خافت جدا لعن عمار ... ثم استغفر ...

ـــ لعنه بصوت مسموع ... لم يحدث شيء ...؟!

لم ينشق الجبل ، ولا فتحت الأرض ، كما كان يتوقع ...

لم ينزل دخان من السماء بداخله عفريت كالجبل يحرق الجهة كلها .

ـــ أعاد بصوت مرتفع اللعنة ، ليتأكد .

لم يتفرقع الرعد ...

ـــ ايه كان يكذب علينا ...!؟

حمل بيده الرقيقة الصلبة قبضة المعول ، واتجه اليه ...

تحت صخرة وارفة وجده يكتب ويتمتم بكلام غير مفهوم .

ـــ أنت هنا يا عمار الكلب ...؟!؟

حاول عمار أن يتملص .. انتظر ... قال عمار :

ولكن قبضة المعول كانت أسرع من الكلام ، لطمة واحدة لا غير جعلت حدا لتمتمات عمار ...

ـــ المساعدان يلتهمهما أسفل تامدة جريا ...

يجري خلفهما بدون جدوى ...

* * *

[illegible]

في أن أكون شيئاً ... [illegible]

أنا لن أكثر [illegible] —

في [illegible]

استطير ...

* * *

— أجد بصوت مسموع ... لم [illegible]

لم يستطع الطفل [illegible] كما كان [illegible]

ثم يزل [illegible]

الجهة كلها .

— [illegible]

لم يتزحزح الرجل

— [illegible]

[illegible]

[illegible]

مفهوم .

— أنت هنا يا عمار [illegible]

حاول عمار أن يتكلم . [illegible]

زمن النهب (1)

نسائم الفيافي ، تهب على عسلة ..
تدلهم في قوة الرعد ..
تهفهف الأرواح الظمئى ،
تجلجل صلوات الفجر القادم
تحملني الى ما وراء الغيوم الداكنة ..
تحتلب من جوفي عصارة الفيضان ...

---

(1) الوحدة .. عدد خاص . 1981
(.) الجائزة الأولى لمهرجان قسنطينة 1981

اللوحة الأولى :

... وبعد عشرين عاما عدت ...! الى قريتى الوديعة (عسلة) كانت هادئة كعادتها ... استقبلتني أمي بطيبوبتها وبكت ... عانقتني وتدحرج مع قامتي أبناء أخوتي .. ضمتني أختي الكبرى الى صدرها النحيف ... استفقت ... استعدت حنان الأسرة المفقود ... تلكأت خجلا وفرحة ...

عفت عالم الصخب الذي رمته من زمن طويل في المدن .. البعيدة تحت شجرة العنب الوارفة كنا عائلة بدوية .. جلستنا الصحراوية أحييناها بعد المدة هذه ...

لفعتنا نسائم أخريات الخريف برطوبة البدو ، ونتانة الغجر ، وثغاء الخراف في عيون أمي ينام حزن شديد للماضي .. زمن الحرب والتشرد ... فهي تبكي في سكون ... تختزن في صدرها محنة أخرى من المحن .

من تلك الجلسة رشقت أماكن صباى .. بحنان وجمت عيوني في السطوح التي كنت أتسلقها ، والرسومات التي

لطخت بها جدران الحوش الفسيح زمن فتوتي المبكرة .. منذ عشرين عاما ...

ــ آه من هذا الطلل ...!

ومن تلك الأيام ما أصعبها ...!

وهذه الأم التي تخبىء في صدرها أسرارا وأهوالا ...

والعائلة الحبيبة ألف لغز ولغز وسر ...

أخي وزوجته الرقيقة وأبناؤهما الصغار لا أعرفهم بيد أن جاذبية غريبة تدفعني نحوهم بعنف ...

أقبلهم أعانقهم ... أكون جزءا منهم ...

ونحو هذه الأم الرؤوم ... كنت أشعر بلحظة انبعاث نوراني من عشرين خريفا أجد نفسي تحدثني به ... حنان الأمومة الذي افتقدته طوال الاشتياق هذا ...

وفي الأخير أعود فأجدها تبكي ، وينام في شواطيء أعينها شوق جارف الى الأيام الخوالي ... ترفل دمي الحزن لساعات النهب وعشق تشرد الجبال زمن المجاعة للحرية المنشودة ...

وطوال جلستنا لم تنبس بمفردة تروي ظمئي .. ولا أدري . لماذا ...!؟

ــ هل تراها تخبيء فرحة لهذه العودة ...؟

ــ أم أنها تذكرت قافلة الذاهبين ... ؟؟؟

جدي .. وأبي .. وأخوتي .. وكل الرفاق ...؟؟

فجدي كان صيادا ...

وأبي مات مع الشهداء في جبل تامدة ...

وأخي الأكبر مات بالطاعون عام المجاعة ... و ... و

وكلهم انتهوا وذهبوا بدون رجعة .

هكذا أخبرتني أمي عنهم قبل عشرين عاما .

أمي ميمونة بنت قدور لا تكذب في حكاياتها عن المجاعات ... هي تتذكر كل ساعة من ساعات الشقاءِ التي عاشتها ...

وقريتي (عسلة) تتغير الآن ، تغيرا هائلا ...

المستشفى والمدرسة .. والبنايات الحكومية كثيرة .. الا أن جوها الصحراوي المحبب لا يزال نتنا كما كان من قبل ...

النخيل يحجبها عن الرمال ... والعيون البرية تتحدى جهنمية القيلولة بثغاء نعاجها وخوار بقرها ، وسكون طبيعتها المحببة الى القلب هي تستقبلني ...

البداوة .. والخيام وسمات العروبة الصلفة ... بالعفة والعشق الصافي لسرمدية الكون عسلة تبدو طاهرة ، وهادئة كعادتها .

ــ آوه عسلة الحبيبة ...!

ها أنا أعود اليك .. أحمل الشهادات الجامعية ، لأحميك من الذين لا يحترمون عفتك الخالدة ... سأكون بين يديك ... أيتها العزيزة ... نخلة مياسة تحجب عنك سخط الكثبان الرملية اللعينة ...

أكون كما أوصتني أمي ميمونة بنت قدور التي لا تكذب أبدا ...

ــ (الساعد القوي في الحكومة) .

هكذا قطرتها في أذني عندما أدخلت ورقة خمسين دينارا في جيب معطفي الرمادى الوسخ وهي تودعني ...

ــ أحذر يا بني ...

المدينة صعبة بدون شك ... يقال بأن بها لصوصا ...

والناس يا صغيري أغلبهم حيوانات مفترسة ... لا تصاحب ...لا تجعل الأمان في أحد ...

وبكت وبكيت وافترقنا ...

صممت ألا أعود ... الى الأبد ...

ولكن ويا أسفاه عدت بعد عشرين عاما ...

وهاهي الكية المنسية تحيا من جديد ...

ــ أماه ...!

في كل هذه الأعوام كنت معي ... جعلت وصيتك

نصب أعيني ... جلت المدن والأحراش ... ذقت المتاعب والشقاء لأحقق حلمك ذات يوم ...

ولكن بعد عودتي أجدك تبكين وفي جلستنا الصحراوية هذه لا تتكرمين ببنت شفة تروي ظمئي اليك ...

وبعد عودتي أجدك تبكين ... وفي جلستنا المحببة هذه يغمرني الحنان الأمومي ... أستحيل لحظة مستقبلية حزينة ... أتطلع الى الماضي المجهول ... وأقول بعنف البدو :

ــ ماذا لو مسحت من على وجهك هذه الرمال التعسة ... تنتشلين من الذاكرة صداعات الأيام الخوالي ... فأنا قد عدت اليك والى قريتي الحبيبة عسلة ... أحمل وعدي ...

وأنت بهذه البرودة تستقبلينني كتلك الجبال الصخرية الراسية هنالك وهذه القرية البريئة الطاهرة ...

ــ ماذا لو ... لو ...!

اللوحة الثانية :

في تلك الساعة من جلستنا كانت عيون أمي خناجر حادة تتآكل بداخلي ... أزدردها كدبابيس مسننة .. لا تروم هذه الجلسة .. فيها كنت أقرأ عذابات الثورة وتسلق الجبال زمن الحرب واستشهاد أبي والرفاق ...

أشعرتني نظراتها الحزينة بأنها ترى القافلة الذاهبة في عيوني

وأذكرها برهبة جبال القصور الشماء ... وعرش المجادبة الأبطال الصناديد ... الذين كانوا يموتون وقوفا انها ترى كل شيء وتسمع كلامهم .. أصواتا تتفجر بداخلها وتسمع أصوات طلقات العشارية بقلبها الطيب وتحدث صيحاتهم أنغاما صوفية لتلك الوقفة البريئة معهم ... هناك في الجبال الوعرة ...

هذه الدموع الساخنة تذكرها ب (الحركة واليد الحمرة) .

ــ آه ماذا فعلا بها وبعائلتها وبعرش المجادبة المساكين وبكل السكان الغلبة الجياع ...

ــ ورجال العرش الشرفاء أين هم ؟

الأطفال الأبرياء ... والشيوخ ... والنساء ...؟

هاهي تلفظ أنفاس الحلم الذي قرأته مع أبي والرفاق زمن النهب لحظة مستقبلية حين كانت وكانوا ...

وكانت قبيلة المجادبة تبعثها سفيرة الى جبال القصور ... لتستشهد مع أبناء عرشها ... (السندوفة . والسي علال) وكل الأبطال الصناديد ..

ــ أبناء العرش البررة ... رحمهم الله ...

* * *

اللوحة الثالثة :

في تامدة احدى حلقات جبال القصور الشماء ...

ظهرت شمس أخريات ديسمبر متحجبة تحاول أن تجري بعضا من الثلوج التي كانت ترتديها القمة العملاقة ...

ولكن غيوم هذه الصبيحة كثيفة ... كثافة العساكر التي كانت تتسلق بداية الجبل في تؤدة فلا تكاد الشمس ترمي الا بصيصا واهيا من دفئها ...

كان الجنود الثمانية وأمي مختبئين في مغارة بقمة تامدة ... هي مركزهم في هذه الجهة ... يراقبون منها الجراد الذي غطى سفح الجبل ... السي شلالي قائد الدورية يراقب هذه العساكر وهي تمسح الجبل ... السكون عام ملأ المكان ...

انطفأت نار كانت تسخن الابريق المجهز للشاي ...

اندس كل واحد منهم في برنوسه ينتظر اللحظة الحاسمة ...

البرد سخط تهديه الطبيعة الى المنطقة ... والعساكر تزحف ببطء .

حاول أن تحصي عددهم ... قال السي الشلالي ...

ــ أجاب آخر :

ــ غير ممكن ... أكثر من مائتين ...!

و ... صمت الجميع . بدأت المراقبة الدقيقة لكل شيء ...

نظرات متبادلة صامتة ... سرت بين الجماعة هي بمثابة الوداع الروحي يعم جسد كل واحد منهم ...

وأخيرا تحرك السي الشلالي وسط برنوسه الوسخ ...!

ــ أوصيكم يا (جماعة)بالاستشهاد ...!

قال آخر :

ــ الموت واحدة مهما كانت أسبابها ... وأضاف ثالث :

ــ أضمن لكم قتل عدة كفار . قبل استشهادي ...

ابتسم السي الشلالي ابتسامة أفرجت عن أسنانه الصفراء ... وقال :

ــ هكذا الرجال ... وأضاف :

ــ كونوا رجالا ... بين أيديكم شرف المجادبة وأهل القصور ...

ــ حذار وثم حذار من (الردة)ان قبض على أحدكم ...!

وعم السكون لحظة ...

ثم وبحركة آلية وضع منظاره تحت جبهته ليرتد بسرعة فائقة يرجعها الى مكانها بجانبه الأيسر ... ويضم بندقيته (العشارية) الى صدره ... يقبلها مرات عديدة ويقول :

انهم عل مسافة قريبة جدا ...

ـــ هذا يوم العشارية ... يبتسم الرفاق ...

يسأل السي الشلالي ... أين المرأة ..؟

يجيبه أبي ... ترضع طفلها في ظلمة المغارة الداخل .

ـــ إذن ابق معها ...

ـــ لا . سأرافقكم ...

ـــ هذا أمر ... ابق معها ...

ـــ أمر لا ينفذ ... قلت ... لا ... قلت ... لا .

يعم السكوت لحظة أخرى ... ثم يبدده السي الشلالي ...

ـــ سنتفرق على قمة تامدة ...

ـــ لا . لا . قالت الجماعة ...

ـــ حسنا ماذا نفعل ... قال السي الشلالي :

ـــ نضرب من مكان واحد ... ونستشهد في مكان واحد ...

رأي الجماعة ...

ـــ اتفقنا ...

ـــ اذن ابق أنت هناك وأنت ... هنا وأنت ... هناك .. بعد برهة خاطفة يطل السي الشلالي من كوة المغارة ...

يعود مسرعا ...!

بصوت فيه اضطراب يقول :

ـــ وصل الكلاب ... استعدوا للهجوم ...!

يترك كل واحد منهم بندقيته تلامس صدره وكأنهم يملؤون الحديد حنانا ...

تقبيل البندقية عدة مرات بات شيئا مألوفا لديهم ...

نظرات سريعة يتبادلها الرفاق ... وداع سريع وقبلات صوفية تجري بدم كل واحد منهم ...!

يتفرقع الرعد في رحم السماء ايذانا ببدء مطر خفيف على القمة الجبلية العتيدة ...

اضاءة كهربائية بين الغيوم أحدثها البرق في عنان السماء ... ومضات خاطفة تبادلتها السماء مع الأرض عندما هدر الرصاص ... وازدادت طلقات العشارية ...

ـــ الهجوم ... الله أكبر ... قال الثمانية ...

جلجلة عارمة رددت صداها تلك القمم .. واهتزت لها الأرواح كلهم يحبون الاستشهاد هنا ... على هذه القمة

الحبيبة ... الصوت المدلهم ينبعث كانفجار مدوي من أعالي هذه القمم الشامخة يمجد الاستمرارية على الدرب المخطط سلفا ...

لم يبق جانب أمي الا ثمانية برانيس ... وأنا أمصمص ثديها الهزيل ألتصق بعنف معها ، أبحث عن الدفء في جسدها البارد ... خائفة هي من بكائي يسمعه العسكر فيكتشف مكانها ...ولا تعرف ماذا يفعل بها لو أكتشفت ...!

صمتت المسكينـــة تصغـــي الى أصوات الرصاص ... تعرف جيدا طلقات العشارية . بل تحب صوت الغناء الذي تحدثه هذه البندقية الجميلة .. رخت أذنها ، دائما العشارية ...

اردفتها طلقات مدوية لرشاش ثم دوي اهتزت له قمة تامدة وقلب أمي .

ارتجفت ... تحركت ... وجمدت ... سكنت ظلمة المغارة ... لملمت جسدها النحيف بالبرانيس وضمتني الى صدرها ...باردة كانت وعرقها يتصبب خوفا .. بكت في صمتها وسكتت ثم بكت وبعد فترة عاد السكون الى تامدة من جديد ... ماذا حدث ؟ من المنتصر ؟ قالت في قلبها ...

انتظرت كثيرا لتطل من فوهة المغارة الضيقة جدا ... ثم طأطأت لتخرج فلسعها البرد ...

لملمت جسدها الهزيل ببرنوس وخرجت ...

أمام المغارة وقفت معتدلة ... ازدردت نفسين وضغطت بكلتا يديها على تورم عينيها... أحست بالتعب والملل والكراهية ... وزرعت نظرات واجفة مع سهل الجبل كمن يتفقد شيئا عزيزا ... بشفتين باردتين تمتمت :

ــ ثمـ .. ثما ... ثمانية ... في صمتها نطقت ...

حشرجة هلع ...يسقط البرنوس تتساقط حبات العرق ممتزجة بالدموع لتروي هذه الأرض الظمئى ...

تجري مسرعة في غير اتجاه ... لا تعرف ماذا تفعل ...

ــ كلهم يا فرنسا اللعينة ...

تصيح بأعلى صوتها فلا تسمع غير صفير الريح القارسة وصدى القمم التي غدرت بأبطال العرش الصناديد ...

السي علال والرفاق ... أبناء المجادبة العظام ...

ــ أين تلك القوات ..؟ العساكر الرهيبة .. الراسية من حين هنالك .. ترمي جسدها فوق جثة أبي الهامدة .. تحاول تقبيلها ...فلم تجد في وجهه غير دماء جامدة تغطي بشرته السمراء وبقية جسده منشبة بطلقات طولية ...

عيناه الكبيرتان مفتوحتان دليلا على الحب الذي لا يفنى ... لك ولقمة تامدة ... ولهذه المغارة ...

جذبته اليها بقوة ... امتصت من فمه البارد حرارة عشق

مكبوت ... اقتلعت من شفتيه قبلة شوق حارة تروي بها ظمأ العمر الفاني ...

وتركته يتكيء على صخرة من صخرات الجبل الشامخ ... الذي قاسمها في حبه البدوي الجارف ...

جمدت الدمعة في الأحداق ...

ــ وأنفاسي الصبيانية كانت متلاحقة ... متسارعة وسط البرانيس لا أعبأ الا بدفء لم أعهده من قبل ...

أمي تجلس القرفصاء أمام المغارة .. تشيع الجثث في صمت .. تغرز عيونها في أبي والرفاق مليا .. نظرات خشوع وتوديع لهم كانت ترقبه منذ أن وصلت الى المنطقة ...

من هذه اللحظة تعلمت السكوت .. الدمعة يجمدها البرد على الخد الحزين والبكاء يستحيل حشرجة في القلب ... تخزن مع الهموم بخبايا الصدر الواسع ...

... مع أحزان القوافل الراحلة التي سبقت أبي والرفاق ... أبناء المجادبة وأولاد هذه القبائل الضعيفة كلهم التهمتهم هذه الجبال اللعينة ...

أين السندوفة والسي علال والافريقي و ... و ...

كل الرفاق ... أبناء الوطن ...

اللوحة الرابعة :

أصبح الجبل مهجورا لا يسكنه الا نحن العشرة ... ثماني فحمات سمرها البرد قبالة المغارة ...

تودعها أمي بنظرات أخيرة ، والبرانيس الثمانية تمدني بدفء وأنفاسي الصبيانية متلاحقة وسط هذه البحبوحة ...

كنت بريئا ... وأمي تعسة وحزينة لا تتكلم ...

وأبي ينام نومتـــه الأخيرة .. والبرد القـــارس يلسع .. والجبل مهجور ورهيب ...

وفي جلستنا هذه لا تتكرمين بكلمة واحدة ...

التفاتة تروي ظمئي ...

حاولي أيتها الحبيبة نسيان فواجع الدهر ...

أنت الآن في عسلة الطاهرة ... القرية الوديعة ، تنام المسكينة في خشوع الطبيعة الصحراوية المحببة التي كان أبي والرفاق يعشقونها .

ـ فقط لذكرى روحه الطيبة حاولي نسيان كل شيء ...

فواجع الدهر الأليمة هذه إرميها بعيدا ...

ـ عيشي ساعتك .. تحت شجرة العنب الوارفة نكون عائلة بدوية .. أليس كذلك ..؟ هذه أمنيتك ..!

ـــ آه أيتها الحبيبة الرؤوم ...!

كم ذقت من المتاعب ... وقاسيت ألوان الشقاء ...!

لم يكن عندليب أيامك ينام قبالة المغارة ، وكأنه لم يكن من قبل حبيب القلب الأوحد في هذه الدنيا الموحشة ... حين كانت خيمتكم ترقد في صدره قصرا عاتيا عتيقا ...

يراقبها المسكين من بعيد ليحصل على نظرة من احدى جهاتها ... لتطفيء شوقه اليك أنت ...

يلهث .. يجري .. مسكون بحرقة حب الفيافي الخالية هذه ... ويعبد ذكر اسمك كان يحاول ليفوز بك .. حتى جاءت لحظة الفرج اصطادك من بين أسراب المها العذارى في الأخير ... بقلبك المملوء بالأسرار الحزينة والجميلة عاش أطيب الاوقات ...

ـــ آه من تلك الأيام ..

فماذا عاد صدرك الصغير هذا يختزن .. ألف سر وسر .. وألغاز الحياة .. والحب والجوع ..

وما يقنطني حقا أنك في جلستنا هذه المحببة لا ترومين غير ماضيك الموحش ...

تلملمت في مكانها ... أزاحت بعض الدمعات من

على خدها .. رشفت من كأس شايها كعادة شيوخ القبائل هناك في الصحاري الواسعة .. هو ذاك دواؤها المحبب ...

مررت عيوني مع صفحة وجهها الكئيب ... أحسستها تقول كلاما في خفت ...

أصواتا غير مسموعة تكنها داخل القلب الجريح ... تتكدس وسط هذا الصدر المملوء بالمتاعب ... النحيف بالهموم ... في الأخير استشعرتها تنتقل في صوفية الى دم الحضور كتيار جارف لا يترك شيئا ...

تصرخ مجلجلة الذات الحسرى تقول : في سكوتها ...

ــ أنني أسكت هذه اللحظات لمناسبة اليوم الخالد في عمري ..

ــ في مثل هذه الساعة قبل ثلاثين عاما كانت روح أبي والرفاق أبناء المجادبة الصناديد تغادر هذا العالم الموحش ..

ــ كانوا ينامون نومتهم الأبدية قبالة المغارة الرهيبة في تامدة ... رحمهم الله ...

عسلة : سبتمبر 1980

الفجـر الـكـئيب (1)

الاهـداء :

الى الرجل العظيم الذي رحل في فجر كئيب.... تاركا قصة عظيمة ..

---

(1) الجمهورية : 27 ديسمبر 1978 .

على غير عادة مني ، كنت في هذا الصباح وأنا في بهو المدرج أتجول بعيوني أمسح فناء الجامعة الواسع بنظرات حادة يضمر سر غريب بداخلي .. بدون شك هناك شيء .. فلوجوم هؤلاء الناس أسرار :

ــ أكيد هذه العيون تخفي عني لغزا ..!

وصباح هذا اليوم يتحرك في تثاقل وأشعر بدبابيس كية مجهولة تلدغني ماذا حدث ؟؟

الجو غير معتدل ... شبه عاصفة ترتطم بالسماء .. الغيوم .. الرياح .. قطرات تحلبها الاعاصير .. خفيفة .. ومنعشة كانت ولكنها تستحيل أحيانا دوامة رهيبة ، تتهاطل معها أمطار غزيرة .

يتبدل الجو .. ترمي الشمس حزمة من الأشعة الدافئة تهديء .. تخدش تغير الحال نوعا ما ..

في هذه الجموع الغفيرة المتكاثرة تزرع حنانا ...

لم يسبق لي مرة أن رأيت جموعا كهذه .. أمواج من البشر ، وجوهها لا أعرفها فقط أعرف بأنها تخفي عني شيئا ما ...

* * *

بجانبي سمعت أحدهم يسأل عن الساعة :

ـــ تجيبه سمراء مخنثة ، بصوت فيه بحة ..

ـــ انها الثامنة الا الربع .

اشتدت الحيرة في قلبي ، تلهفت على معرفة السر ..

ذهبت ، سألت ، ولم يسمعني أحد .

توجهت الى جماعة ، فلم يلتفت لي أحد .

لم أتعود من جامعتنا الهادئة كتمان الأسرار فقط اليوم قهرتني .. تأكدت أن السر سيظهر .. ستتعرى الساحة ذات لحظة ..

ـــ ماذا يجول بخواطر هؤلاء الناس،مع انعتاق هذا الفجر اللعين ..

آه قريتي ما أطهرك ..!

لا تخفي عني الأسرار ، جبالك الشامخة ووهادك الجرداء كلها أسرار وألغاز فسرتها الطبيعة ..

* * *

ماذا جرى ماذا ....؟

صيحات متعددة ، صراخ ، من كل مكان ...

العويـل .. مصحـوب بهلـع ، وجمت ، اضطـــربت الساحة ، قال أحدهم :

ــ العجوز أصابتها (كريز) نوبة .

هرول أحدهم نحوها .

وجاءت مجموعة نحوي ، وذهبت مجموعة تجري في اتجاه آخر ، جريت ،وعدت ، ووقفت ، ولم أعرف شيئا .

الساحة العتيقة تعج بالمغمى عليهم .. والبكاء كثير .. وسمعتهم يقولون :

ــ ها هي ، ها هي سيارة الاسعاف ..

ولكني رأيت عدة سيارات ، تحمل الناس كلهم مرضى ..

هل أصابتهم الكوليرا ...؟

ــ عجيب أمر هذا الفجر التعس أفصح عن صبح ناع ...

كآبة لفعت وجوه الناس بحزن لا أفسر مصدره ..

الناس تهرول ، وتسقط أرضا ، والصياح يتعالى .. أحدهم سمعته يقول :

مات والله مات .

ـــ قال الآخر :

قالوها في المذياع هذا الصباح .

ـــ لا ..

قرأتها في الجريدة ..

عقرب الساعة انزاح عن مكانه .. تحول معه الزمن وتغيرت الأحوال في الساحة الكبرى الى أفجع ..

يتساقط ضعف ما سقط من البشر .. يزداد العويل .. والبكاء وحرارة الشمس تتقلص ..

كنت متصلبا كالعمود .. التصقت بجدار حائط ..

مشدوها كنت ... لا أعرف شيئا ... فقط أرى بعيون بليدة ما يدور حولي ... حلفت في نفسي ... بأنني لا أعرف شيئا..؟

ـــ صدقت قسمي ..!

سألت نفسي لماذا أبكي ؟

تعجبت ... لماذا أبكي ؟

ـــ أقلدهم ..

ـــ آه فهمت ... وصرخت بدون أن أشعر ..

لا ... غير صحيح .. لا ..!

كانت هناك ريح غير منتظمة ، تسير في كل اتجاه تصفع الوجوه الواجمة .. في اتجاهها الى قلب المدينة كانت هذه الأمواج البشرية تشكل مسيرة حزينة تملأ الشارع طولا وعرضا ..

وتجاوب الريح بعويل .. وزغاريد تذكر الشيوخ بيوم الاستقلال ..

ــ انها قافلة الحزن تزحف ببطء تحمل معها كل هموم الدنيا .. تتوجه بخطى وئيدة ناحية الوسط حيث الفاجعة أكثر .. المشايخ والنساء والأطفال ...

ــ في هذا المكان كان المرحوم يخطب ..

قالها أحدهم ... وسمعت الآخر يقول بعويل :

ــ لماذا لم يمت الآخرون ..

* * *

آه وهران البهية .

ترتدين اليوم لباسك القاتم .. حزينة أنت كبقية المدن ...

ــ لماذا وهران ؟

حسانك الجميلات .. وغيدك الفواتن يتساقطن هنا وهناك ..

وعلى أرضك الوجعى بحمى الاغماء يدور هذا الخبر الموجع ...

لماذا صياحك يتعالى في سمائك الكلمى ... صراخ الجياع ... والثكالى يسمع من بعيد ..

دموع اليتامى والأرامل تتهاطل كهذا المطر .. تغسل شوارعك الطويلة .. كل شيء فيك كان يطلق عياطا رهيبا .. حتى البواخر في المرافيء ومداخن المعامل ... أفصح عنها هذا الصبح غاضبة على السماء .. دخانها كان يتصاعد بقوة ليبدد الغيوم بعنف ...

ــ يا مدينتي الحبيبة ..

ــ ها حلمك يكفن الآن ... لماذا هذه الغيوم تحجب عنك شمس الصبح ؟؟ والأطفال لماذا ينوحون هكذا ؟ ...

ــ هل يعرفون هم كذلك سر هذه الفاجعة .

فقط أنا لا زلت لا أصدق .

ــ سأنطلق .. صياحي قوي .. وأبكي بكائي .. مرير .. وأحزن حزني كئيب ..

ــ سأفرج عن نفسي ككل الناس .. لأنني عرفت في الأخير لماذا يبكون ...! ولماذا يتساقطون هكذا ...!؟

فانطلقت .. ولكن ...

لماذا أفقت في الغد .. لم أعرف نفسي .. المستشفى .. راعني مشهد الجميع .. الممرضات يبكين .. الطبيب عيونه منتفخة ..

وكلنا نبكي ..

ـــ من مات ...؟ صرخت ..!

يجاوبني صدى من قلبي ... أبوك ...!

وهران في : 27 ديسمبر 1978م

لقد ... تعالى في ... الكمان ...

الشارع ... وكأنني ... من بعيد ..

عمر ؟ ... والأطفال ... المطر ... يحمل

شوارعك الطويلة ...

من البواخر في المرفأ ومقاهي ... أصبح عمرا هذا

الصبح ...

اليوم بعدك ...

— يا مدينتي الحبيبة ..

— ما حملك يكفي الآن .. لماذا هذه الغيوم تحجب

عنك شمس الصبح ؟؟ والأطفال لماذا يسرحون هكذا ...

— هل يعرفون هم كذلك سر هذه الفاجعة

فقط أنا لا زلت لا أصدق ..

— سأفتش .. سأسأل ... وأبكي ...

مرة .. وأحزن حزن ...

— سأخرج من ... كل الناس .. لأني ...

الأمر ماذا يكون ... ! ولماذا يتساءلون هكذا .. ؟

فانطلقت .. ولكن ...

لمـن أحكي همـومي ....؟؟ (1)

يكون الانسان شقيا حين يعلم بأنه شقي
ويكون عظيما حين يعلم بأن الناس كلهم أشقياء ...

فولتير

---

(1) مجلة الثقافة والثورة : 1980 .

السيد الهادىء ...!

قبل المغيب بثوان ترمي الشمس أشعة أرجوانية الى البحر ... يستقبلها في وداعة ..

تغطي صفحته البرتقالية نسائم خفيفة ... تربت بمداعبة على أخاديده الهادئة يستأنس لها وينام ...!

هذا ما حدث للبحر منذ أن نام .. من الأزل كما نامت الجبال والتلال .. والأنهار العظيمة .. لا تحرك أمواجه الراسية الا ذكريات دفينة في قلبه .. أزعجته الريح في عهود صباه .. أضحى حقودا .. عصبي المزاج مع الدهور .. ومحنة الأيام التعسة ..

البحر له قصة عجيبة لا يحكيها لأحد .. فقط لمجاذيب العشق البدوي .. ويتامى أيام الدهور العارية ..

مغامراته لطيفة ومسلية .. أبته الريح ذات شتاء وأحرقته الشمس في أحد الأصياف فكره الريح .. ونام في المراسي والشطآن كالسكران .. يبكي كان ويضحك بدون سبب ..

يهاجم المراسي والشطآن في عنف .. عندما تغضبه الريح ، الحبيبة التي كانت .. يأكل السفن يهدم المرافيء .. بلا شفقة يقوم بأعمال المجانين ...

تعود ابتسامته ويهدأ غضبه عندما يحطم كل شيء ...!!؟؟

تعرفت عليه عندما جئت من الصحارى .. ظمآن الى التعرف على قصته .. استقبلني بابتهال .. جلست بقرب مياهه الدافئة ..

صممت أن أقص عليه حكايتي مع الأيام و (حليمة) ...

خفت الناس في البداية .. يجدونني أكلمه فيعيرونني بالجنون .. سأجازف .. سأغامر ..

فاستمع سيدي البحر ..!.. أيها السيد الهادىء ..

قصائد العشق والشقاء ...

من سكرتي من نيامي العميق .. قلت مع نفسي سألم أنقاض محنتي .. وأبكي أيام عمري وفقط من أجل البكاء ...

على من أضاءت شموع حزني وشقائي ..

على من نورّت دروب عذابي وبؤسي ..

على الزهرة البرية التي نبتت في الصخور والأوحال ..

النبتة الصغيرة التي احتضنتها شطآن (وهران) ...

الغزالة التي فقدت مراعيها .. وضلت في الأحراش والتلال الصخرية..تبحث عن أزمنة المجاعة الدهرية ...

كانت (حليمة) زمن اغتسال (جثمان) العشق الصوفي أيام الحزن وحصد الكآبة ..

انتشلتها الأيادي (الرعناء) الخشنة .. عبثت بطهارة قلبها الطيب .. قبل أن نلتقي ...

عن الطفلة الغجرية ... والوداعة ... وعشق أيام الحزن قاطبة .. علمتها الأيام أن تحب بعنف ... وتعشق الحلم والمغامرة ... جابت كل الحقول والمنافي ... قطعت المسافات ... بحثت عن الدفء بأحراش العمر والمدن الجاثمة على صدرها الملائكي ...

انتهت بسهولة ...!

قدموها لمرسم (الخطوبة) دقت طبول الشقاء انتشلوها .. صرخت .. بكت .. وأخيرا ذابت مقاومتها .. وتم الحداد وكانت المأتمة .. مرفوقة بحزن القلب الكبير وشقاء النية الخالصة ...

سيدي البحر ... هل فهمت ...؟

(...) انتهت ...

يوم المأتمة ويوم الشقاء ها أنا كما تراني ...

في عيني كانت (القمر) .. والدنيا في ملمسي .. وأغنية بدوية رتلتها في اللقاءات الليلية ... أحمل كنت قلبا مجنونا ... مخبولا كنت ولا زلت من هذه القصيدة البدوية التي غنيتها في الحارات .. وطفت بها كل الشوارع ... متحديا أنواء الشتاء وهجير الصيف في الفيافي ...

وها هي كما ترى ـــ سيدي ـــ قد ذابت في غير عناء ...

شمعة انطفأت في عيد ميلاد .. كانت لها بداية ونهاية ...

غجرية الفجر الراحل ..

مسح شريط ذكرياتي الواهي الاشعة الأخيرة التي تلاشى معظمها في نهاية البحر ...

أخذت الخيوط المتبقية طريقها نحو الأفول ... لتستقر في رحم السماء ... اقتربت من النهاية ... من الذاكرة انتشلت شريطي المحبب ... رميت به بين يدي السيد الهادىء .. ليحكم ...!

ـــ ايه أيها البحر ... ما رأيك ..؟ من المذنب ..؟

تخالني أثق فيك .. أحكي لك بعفوية المجانين ...

ـــ بدون استحياء ولا وجل ...

قلها بصراحة ...

ــ قل ان الأيام هي التي ظلمتني وحليمة ...

أو قل ــ أي كلام ــ المهم ألا تسكت ...

ــ فأنا سيدي البحر .. قد تعلمت من صحرائي (أن الحب تسبيح نوراني .. قرأت على اللوحة وأنا صغير أن الخداع ذنب لا يغتفر) نشأت على الصدق .. أبحث طوال عمري عن حليمة فوجدتها ... قرأت لها كل ما جئت به من فيافي صبوتي ...

غنيت لها قائد البدو أيام الرحيل ...

أهديت اليها أزهار النعمان البرية وحفنات من الرمال ... و (دفلة الأودية النائية) .

رتلت على الناي أغاني الرعاة في جبال القصور ...

كنت أحفظ كل شعر الصحراء عن ظهر قلب .. وأعشق الصدق ... وطيبوبة الأيام الجائعة الى مرافيء العمر الوردي ...

وها أنا بهذه النهاية المفجعة قادم إليك ..

بين يدي ينام قلبي التعس ...

ومواصل في وحدتي حزن الموت الموحش .. حزنت كثيرا عندما غابت عني حليمة تراها توارت في خبايا قلبي التعس ...

يافعة كالأحلام .. دافئة كعصفورة صغيرة ...

انتشلها الدهر من أوكار الحب الفجري ...

نحف جسدي .. مسحت الأيام كل الحكايات التي حفظتها عن عيونها ...

الا ذكريات رعشات الوحشة .. سوف لن تبعدها عني حتى العواصف التي تزعجك .. يا بحر .

ــ ها أنا أتذكر أمامك حتى فساتينها ...

الاحمر القاني .. والوردي .. والبني حين يضغط على جسدها الأهيف تظهر نشطة كعروس بحرية .. شعرها (الفريزي) ...

عيونها الصغيرة المتلألأة .. حتى شارعها المرهق ...

شارع (المسجد القديم) كما سماه القدماء ... يمتد المسكين محاذيا لناحية البحر ... أفعى هرمة ... تربت قطرات الأنواء على عماراته الصدئة ...

يغيب الناس عنه في الليل .. تكتظ جنباته بالظلمة ...

يئن في زحمة ما يصله من السماء .. (السخط) ...

تموء القطط حزنة بادراجه .. يظهر كئيبا كالشيوخ المسنين ...

أندس بمعطفي ، أرقب حركة النافذة بالطابق السفلى ... يطول بي الوقت ... الظلام ... الجوع ... الخوف ... القطط

تموء ... المطر يسقط ... يعم السكون ، لا أرى حليمة فأعود ...

ــ آه كم تعذبت ....!..؟

كانت تنتابني اغفاءة جنونية ... غرفتي مظلمة ... لا أهل لي ... غير أمي بعيدة تحجبها عني جبال جرجرة ... هي هناك وسط الكثبان الرملية قضيت كل عمري في الملاجيء ... منذ أن جاءنا خبر استشهاد أبي في جبال القصور العظيمة ...

مات شهيدا .. يقال أنه كان يحب الأرض .. وأنا تعذبت .. هل تعلم؟ الوحدة .. والظلام .. تعب .. الحب البدوي يعذبني والعنف مسكون به .. هذه حياتي باختصار أيها البحر ...!...؟ وهذا هو أنا ...

وتريات صوفية ...

وقفة وفقط وقفة أمام المغفور له ... (الحب) ..

اليك أنت و فقط أنت (حليمة) ...

هذه الذكرى من رياع السواحل وفيروز الشطآن العتمة ...

عندما كنت نغمة في سكرات الجنون والعشق الرباني ... وها أنت تذوبين ... تنتهين مبحوحة بآلام الحسرة ..

ــ وها أنا أقف أمام البحر وأحكي له ...

وحيد أنا بعد أن رميت رماد ذكراك الطيبة بهذه المياه الدافئة ...

قرأت للبحر سريا وفقط للبحر ...

همومي وأتعابي سمعها في خشوع وتألم كثيرا ...

ها وجعه تبديه أمواجه المضطربة .. سيغضب كثيرا ...

يتذكر يوم كان هو العاشق وكانت الريح والعواصف العاتية .. نسائم ربيعية أليفة .. تهواه .. ويبادلها حبا سرمديا يباركه الدهر ... تحتضنه الأيام مولودا وضيعا لا يكتمل ...

هذا قبل أن ينام من الازل ... عندما كان طيب القلب لا يظلم أحدا ... ها هو يصدر حكم براءتنا ... هو يصب جام غضبه على الدهور والناس ... ليس كل الناس ... لقد استثنى المجانين بالعشق البدوي ... نامي سيدتي بخبايا قلبي ... قطرة ماء باردة تهدىء اغتياظي ... كما نام البحر ونامت الريح في قلبه ...

غياهب هذا الصدر أسكنيها الى النهاية وسأبقى كهذا المسكين المطارد لا أتكلم سأدع ذاكرتي تلفظ ما طفى على فتوتها سنين طويلة .. ترمي الاوساخ الصدئة .. المكربات الدهرية التي انتهت ..

انها أول وقفة أمام البحر أتقيأ فيها بعنف البدو ..

قيوح الهموم الأزلية ... كل أشباح الخراب الرابض على

طول الأيام ... تبولت بوقاحة على ما كنت أسميه مع نفسي (... ذكرى ...) .

لآخر مرة يتبدى الرفض ... دبيبا نورانيا يسري (أحمر) مع دمي (الأحمر) في عنف ...

انه ربما ذكريات ما قد سيأتي ...

* * *

الــــزردة (1)

لا يرتكب الانسان الجريمة لجرمه
وانمـا يرتكبها نتيجـة جهله

أفلاطون ...

ـــ جائزة . 19 ماي 1980 . جامعة وهران .

ـــ الجمهورية نفس السنة .

العواصف قوية ... والجو قاتم لونه كالرماد ... السحب معكرة ... انه فصل ارتحال الكثبان الرملية ... حبيبات الرمل مهاجرة ... من منطقة الى أخرى كالطيور ...

القرية الصغيرة لفعتها قتامة رهيبة ... لبست حلتها الأرجوانية ... رداء قان عودها به الشتاء ... ريثما تمسح الكثبان أزقتها الضيقة ...

ـ إيه القرية المسكينة ... قال أحد الرعاة :

ارتجفت امرأة كانت تحلب بقرة ... في صمتها لعنت الشتاء وطبيعة الكون وشيخ البلدية ...

القرية المسكينة طفل جريح مستسلم للعناء ... جوانبها يغطيها الشقاء في هدوء ... ضعفها الأوحد أنها لا تقاوم بحدة ...

جوها البدوي .. مناظرها الصحراوية .. نخيلها .. بساتنها الخضر .. كل شيء مسحته الريح وجثم عليه الليل ...

ليل الشتاء القاسي ...!؟ خرابا تركتها العواصف الهوجاء ..

ـــ من بعيد ..

سحاب قان كان يلوح كالبرق ... رياح عاتية تسوقه ... في عناد يسير اتجاههم ...

تومىء رؤوس داخل البنايات الطوبية مستنجدة:

ـــ سيصب المطر ... يصب المطر ... (المطر) .

تهدأ العواصف والكثبان الزاحفة ... عندما تحلب السماء عذريتها ... تستعيد القرية أطيافا من حلتها الوردية ... لما تفرش الشمس أشعتها الدافئة على الربوع الصحراوية ...

تعود حركة الناس والحيوانات لما كانت عليه ...

الصراع من أجل البقاء ...!

البقاء للاقوى في هذه المناطق القاحلة ...

حتى الطبيعة تقسو بكل ما تمتلك من قوة ...

هؤلاء البشر يعانون ... يتذمرون ... يجاهدون ... في ديمومة ضد الطبيعة وضد أنفسهم ... لضمان حياتهم البسيطة ...

ـــ ما أقساك يا شتاء ... قال أحد العمال ...

ـــ وأردف آخر :

ــ شتاء هذه السنة لم أر مثله منذ خمسين عاما ...

* * *

بجانب مدفأة (مكتب العرش) كما يسميه الحاج قويدر ... كان الحاج (قادر) يستند على أريكة فخمة ...

من حين لآخر يطرق الباب طرقا خفيفا ... يدخل أحد كتاب البلدية يقدم كومة من الأوراق للامضاء ... يخرج قادر قلمه (البيك) من جيب الجيلية ... ينهمك في الامضاءات ...

لا عمل الآن لقويدر ما دام قادر قد حضر .. هو يشكل في نظر الناس المؤنس الحقيقي لقادر ..

حتى في ملامحهما لا توجد بينهما فوارق كبيرة ...

قويدر شكله كروي .. ومقد مته منتفخة .. مما حدا بجسده أن يأخذ المظهر المنتفخ ابتداء من الرقبة القصيرة الى البطن المتورمة فوق اللازم هكذا يبدو قادر الا أنه فارع الطول عندما يحاذي قويدر ... وهما على العموم يشبهان بعضهما الى حد كبير ...

* * *

يتبادلان النظرات الحيرى من حين لآخر ...

تساؤلاتهما جد متعمقة الا أنها مفهومة بينهما ...

يرفع قويدر يده اليسرى لتعينه على الكلام عندما يبدأ في التعقيبات .

ــ ملل .. يا الحاج ...!

ــ واش تحب .. يقول قادر :

يشعر قويدر أن زميله قد خانته البديهة .. فيردف :

ــ امضي .. امضي ..

الحياتات .. الممتات .. الطلاقات التطليقات .. الخ ..

ــ والله ملل ...

كل نهارك تقضيه في الموافقات على هذه المشاكل .. وتلك الطلبات ...

ــ لماذا لا تتركهم الحكومة وشأنهم ...!؟؟

ــ والله عندك حق .. يقول قادر .. ويردف :

ــ لو أن الحكومة رخصت للشعب عمل محتيجاتهم الادارية بأنفسهم ..!؟؟

يبدو أن قويدر لم يفهم جيدا .. يحس قادر فيضيف :

ــ أعني لا تطالبهم بكل هذه الأوراق الادارية ...

ــ ايه فهمت ... صح .. صح ..

* * *

شريط طويل وعزيز يجري كالمنام بذاكرة قادر :

السنوات الخمس لم يبق منها الا بضعة أشهر ..

مللت .. كرهت .. وأنا لا أعرف من هذه (القراءة) غير تلك الامضاءات ... كل ما في الأمر أن كلمتي التي كانت ذات وزن ستتزعزع في يوم من الأيام ...

أخرجه تساؤل قويدر من دوامة تفكير طويل ..

— قالوا : لنا في الاجتماع بأن (الشعير) عن قريب يصل ..

نعم .. نعم .. سيصل ..

أرجع قلمه الى جيب الجيلية .. وقف متثائبا ..

اعتراه لمس خفيف .. قطع فناء المكتب مرتين .. يشبك يديه الى الخلف كأنه يهم بقول شيء ...

يفاتح زميله في أي شيء كان ...

سكون مزمن عم المكتب ...

خشيش أحدثته النار وهي تتآكل داخل المدفأة ...

قلب قادر يعتصر جمرة ... يريد أن يحلبها ولم تطاوعه ... غلبته هذه المرة ..

* * *

الحاجب العجوز يقف أمام الباب .. أذنه تترقب أي نداء .. قلبه يرتجف .. يستشعر من أعماقه (أمر) .. طول هذه الجلسة .. ستلد صفقة ما ...

في نفسه يردد أشياء أصبحت بديهية عنده ..

السي قادر مشحونة رأسه بالمكائد ..

السي قويدر بالموافقات ...

في حينها كان قويدر يسأل :

ــ ما لك ياقادر ..؟

ــ والله لا أعرف ... ويسكت .

فيقول قادر :

ــ أنا موافق على ...؟! ..

ــ شكرا لك يا الحاج قويدر .. يردف :

ــ أنت ذراعي الأيمن ...

هيا بنا نخرج ..!

يفتح الباب في ثواني .. يدلف قادر متبوعا بظله ..

يتصلب الحاجب العجوز .. تلتقط خياشمه رائحة ندية عطرة .. يرجعها له التيار الخفيف الآتي من فتحة النافذة ..

تردد أنفاسه قولته المألوفة في قلبه :

ــ ما أزكى رائحة الحجاج .. لولا ..!.

وفي الخارج وقف الاثنان كصخرتين ..

ــ وجوم حانق يبدو عْلى قادر .. كل شيء فيه يوحي

بسر ما ..

ما هي مهمتك يا قويدر .. قالها في نفسه وأضاف :

ــ اضحِكْ زميلك .. أخرجه من دوامته .!

أنت أعرف الناس به .. ذراعه الأيمن .. أمين سره .. ظله الذي لا يفارقه .. اقترب منه .. صمم أن يكلمه .. يدخل عليه الغبطة ...

السؤال المحير الذي دوخه :

ــ لماذا هذا الوجوم على ملامح قادر يخيم ..؟

كل شيء أعرفه ما عدا هذا ..!

بالأمس كان راض بعد أن .. أنجزنا المهمة الأولى ...

ــ عشرون مليونا .. ويقلق الآن ..!

ــ ماذا تريد أكثر من هذا يا قادر ..!؟

حتى عمال البلدية أصحاب الأجر اليومي .. نصف أجرهم لك .. ولعائلتك أبناؤك (س) في كذا ... و (ص) في كذا وكذا و (ع) ابن أختك في خيمته ولكن أجره اليومي يصله .. مبتزا من أجر عمال الطريق .

ــ ماذا تريد أكثر من هذا ؟!

ــ كبرتها يا قادر يا حبيبي .؟!

رنّ جرس التلفون بمكتب العرش .. ولج قادر مسرعا ..
يحمل السماعة .. يضعها بعد برهة .. يعود ...

بشغف يسأله قويدر :

ـــ من ..؟

ـــ لا أحد فقط زوجتي .؟ .!

اذن عنده مشكل اجتماعي .. يقول قويدر ...

يريد أن يدخل أنفه .. يسأل :

ـــ الحاج قادر ... اسمحلي ...!

ـــ تفضل ...

ـــ هل عندك شيء في البيت ...؟؟

ـــ لا .. ويردف .. ماذا تقصد ..؟؟

ـــ فقط أردت أن أعرف ..!؟

في الأخير يقرع خيط الحدث في أذن قويدر ...

ـــ ايه عرفت ...

سر وجومه هذا اذن ...!

أنا أعرف بأنني أعرف كل شيء ... لا تخفي عني خافية ... وخاصة من جهة قادر ... في قلبه قال سأجرب ...

أتأكد بأنني أعيش في أحشائه .. أعرف كل ما هو موجود بدواخله .. حتى خبايا صدره ...

ــ قالها بصوت يسمعه قادر ..

ــ الحاج قادر ...!

ــ نعام ...!

ــ أعتقد أنني لم أخبرك ..؟؟!!

ــ هل هناك شيء ..؟

ــ الفطور .

ــ ما به ...؟

ــ نتناوله اليوم عند الحاج (رابح) .

ــ غير صحيح ..!؟

ــ حق هذاك .. وأشار بأصبع متورمة الى قبة بيضاء تحرس القرية من الخلف .

* * *

غطت ملامح قادر فرحة العمر .. بدت على تقاسيمه ابتسامة عذبة ...

ــ على الفور تصفح ساعته ...

ــ لماذا لم تقلها منذ أن التقينا ..؟؟

ــ تركتها مفاجأة اليوم ..

ــ أنت ذكي .. يا (الجن) .

وفي نفسه قال : زردة من (الزرد) .

في (صالة) حوش الحاج رابح الفسيحة تربع قادر وسط الجماعة المنقأة ... هواجسه تقول زردة من (الزردات) ...

المناقشة تسير كما يريدها .. هو ..

أسوام الغنم ... الموضوع الرئيسي ... الشاي .. السكر .. الشعير .. ومواضيع أخرى لا تستقطب انتباه السادة الا لماما ...

يوضع الخروف المشوي أمام سيد العرش ينظر اليه بقناعة .. كعادته يقول :

ــ ليس الأكل هو الذي جمعنا ...!

يتكلم في وقار .. عادة الجماعة (شيوخ القبائل) ..

لا يقاطعه أحد عندما يتحدث .. كلامه كثير لا ينتهي .. عن الثورة .. هو يعرف كل الأبطال .. قام بمعظم الحروب .. في الدين يفتي بكل المذاهب ...

القرية لا تعرف أشرف من هذا الرجل ... في اعتقاده ... العمال البسطاء كانوا يسمونه الداهية ...

يحسن الالتواءات في الكلام رغم أميته ...

هوايته المغالطة..يقول عنه معلمو مدرسة القرية :

ـــ لا يوجد من يكذبه ..؟؟!.

من عادته السيئة .. لا يحب من يقاطعه .. الا في حالة واحدة ..! سيقولها الحاج بنفسه :

ـــ يا الجماعة .. اسمحوا لي ..

ـــ تفضل سيد الحاج .. تفضل .. تفضل ..

ـــ يا الخاوة ..

ـــ الله لا يقطعها عادة ..

ـــ انشاء الله ... انشاء الله ...

ـــ انتبهوا ... يا الجماعة .. يقول أحد الأصحاب :

ـــ تفضل ... تفضل ...

غدا اذا كنا من الأحياء ..

ـــ الله يزيد في خيركم ... يقول قادر ... ويعيدها قويدر .

وفي الغد عندما تأفل الشمس ... ويلتهمها رحم الغيب الأزلي .. ترصد سيارات فخمة بحوش الحاج (...) ...

وبعد الغد بحوش السيد (...) ...

هكذا جرت العادة ...

ـــ الله لا يقطعها عادة .. تقول الجماعة ...

وتأفل الشمس ... شمس السنوات الخمس ...

لقد زودت قويدر بتجارب عديدة ... سيأتي يومه كما قادر ...

والكثبان الرملية تواصل كعادتها .. حبيبات الرمل مهاجرة .. والريح تمسح الأزقة الضيقة والشتاء ليل طويل لا ينجلي .. يبسط جناحيه على مناظر القرية الخلابة ...

يلبسها لونا قانيا ..

يحيلها أطيافا من ذكريات كلها أوهام ...

عسلة في : 9 مارس 1979 م

الــزواج (1)

الاهــداء

فتيحة ...

ــ حبك سر صوفي يجرفني الى تيار التوحد

ــ نشوتك الساحرة ريح عاتية تدهم في ليل الفناء

ــ روحك الطيبة لغز ... يخدر التوحش في ذاتي

ــ نامي أيتها الوديعة بخبايا الصدر الى الأبد

---

(1) الجمهورية ــ النادي الأدبي . 1979 .

الى الرحيل أومأت الشمس بمحياها القاني .. تجر خيوطها الذهبية في لطف لتتوارى ناحية الأفق .. تاركة العالم لأنامل الظلام تبدد بعد حين هذا النور الالهي ...

تجثم في ليل طويل على كون الشواطيء النعسى .. تنال منه مدينة وهران قسطا يسيرا .. وتهدأ الشوارع التي كانت تعج بجحافل ناس من مختلف الاشكال ...

يهب عليها نسيم جويلية المنعش ليلا .. يلفع سمار الليل الذين كانوا متعاطين الهمسات الخافتة في جلساتهم الروحية ..

في هذه الأثناء كانت عيونك متنقلة في سماء غرفتك الصغيرة .. تنظر في ظلام الأشياء .. تلاحظ شيء في كل الأشياء .

انك لا تروم هذا الكون أيها الحزين .. وعلامات المرض تظهر على ملامحك .. تستأنس للتشاؤم الرهيب .. وترى أنينك كلمات ثكلى هي من أنواع الغناء الصوفي أقرب .. وأوجاعك هزات روحية .. كرقص مجانين الجذب ..

وعندما يشتد بك الحنين تهذي ككلب يلهث خلف سراب العمر الفاني .. وحنينك يستحيل الى آهات ربانية كما كان ينادي الحلاج أثناء صلبه .. وتصرخ وأنت في غرفتك بدون مؤنس :

ــ مخطا ... ية ... مخطا ... مخطارية .

تنهض من مكانك .. تستوي جالسا على سريرك ذي الرائحة النتنة وتدع فتحة الباب ترمي لك ببصيص وامض من الغرف المجاورة .. وكعادتك تستشعر لذة رهيبة في قراءة كتابك المتوسط الحجم .. تحملق جيدا في صورة صاحبه ذي ......

كنت تفكر فيه كثيرا ... وتقول :

ــ هذا هو الرجل ..

بكتاب واحد هزّ العالم بأكمله ..

تغلقه وترمي به في ركن الغرفة .. لا تعرف .. أين يقع ..!

ــ وتقول مع نفسك :

ان هذا العناء لا يخوّل لي التفكير الجدي وتعود الى رقدتك الأولى .

ــ هكذا أيها التعس صار روتين أيامك ...

الأحزان هي الرفيق الوحيد الذي بات يسامرك فقط هو الذي عوضك عيون المخطارية ...

ـــ ما العمل اذن ؟

وهذه الكتب هل تخرجك من دوامتك ...؟

أنت تعرف بأن أمك تنتظر مقدمك .. وقريتك الصغيرة هادئة وخلابة .

ـــ ابنة عمك الغجرية أصبحت امرأة .. تنتظرك ...

ـــ فماذا تحمل لها ؟

وغيابك قد طال أيها المجنون ..

أمك تظنك رجلا .. وأنت أكبر نذل عرفته القرية .

ـــ لماذا لا تقدر شعور أمك ؟..!

كل يوم تتوجه الى ضريح (القبة) وتعدها بذبح دجاجة اذا عدت فماذا تنتظر منها ؟

وأنت تفضل (المخطارية) ... ثم ماذا تعني بها ...؟

هل هي امرأة .. (علجتك) الرومية .

ـــ أم ماذا تقصد بهذا اللغز .؟

لا أحد يفهمك في قريتك .

ـــ بل هل تفهم أنت نفسك ...

... مجنون أنت ...

وفي اليوم التالي .. هل تتذكر ...؟

كنت شبه معلق حين أطللت بعنقك من النافذة تنظر في الخارج بعيون غريبة .

ــ ايه ... يا ابن الصحاري .

يا من نشأ في القحط .. تنظر اليوم بعيون الفيلسوف .. الغريب عن البيئة وتتمنى أن يتغير العالم ...

وترى كل ماهو ثابت متحول .

وما كان متحولا تستشعره في أعماقك مجهولا عديم الحركة .

ــ فمن أنت حتى تتمنى كل هذا ...

بدون شك مجنون أنت ...؟!

والآن في نفسك حنق ...

لقد وصلت الى ذروة الجهل بقضيتك ... وجد مصمم أنت على هذا الزواج وتقول مع نفسك :

ــ اخترتها من نوع آخر ...

ــ ألا تقدّر الظروف ...؟

هي غريبة عن عائلتك ... وبيئتك لا تألف نوعا كهذا ...

تقول مع هواجسك (الخطوبة هي المنعرج الحاسم لكل خائف على حبه) .

ـــ لا بل الهروب بها .

ـــ أين .. لا أعرف ؟؟؟

ولا تعرف .. ترى أن الاستسلام من بداءات الدنيا .. فقط تحب الاقتحام كنت تسمع بطولات الشهيد أبيك .. ولا تصدق تخبرك أمك وتبتسم ولكنك مع نفسك تقول :

ـــ هذا من المستحيل ....!

فهل تعرف الآن ما هو المستحيل ؟؟

هو زواجك هذا ...

ستعيش منبوذا ... كل الأصابع تشير اليك ....!

ـــ هذا هو ... هو هذا ..؟..!

ينفجر رأسك من كثرة التفكير في اللاشيء ...

سوف تعرف ذات يوم انك ارتكبت أكبر جريمة في الدنيا ...

ستفوق جريمتك كل الجرائم ...

لا تساويها حتى أفران هتلر ..

انها أخطر من قنبلة (هيروشيما) .

تكون ميتا وأنت حي ..

أربعون سنة تسكنك (ديدان) الأرض ... يترهل جسمك من عذاب نفسك أيها الحزين ...

ـــ أبوك كان يقتحم عندما يعرف بأنه مفيد .

أما أنت فسترمي بنفسك في جحيم النيا ...

تذكر فقط .

النهاية المخزية لعمر كريم عشته في حياتك وستنهيه بهذه البساطة ...

اعلن في الناس الآن بصوت مرتفع .

ـــ أيها الناس سأكفر عن سواتي ... سأفسخ الخطوبة من مخطارية اني أنبذها كما كل عائلتي ...

ومن أعماق قلبي أحب ابنة عمي الغجرية .

ـــ أشفى من أعماقك أيها التعب بأثقال العمر ..

فالقمر دونه الغيوم مكتظة .. ولا تردد مع نفسك هذه الأصداء الموجعة لا تقول :

ـــ أنا أعشق القمر ... وستتمرد فتحطم القيود ... سيهشم رأسك لا محالة لست فيلسوفا أنت ..

تذكر فقط غرفتك المظلمة .. ولا تتمنى فتح نوافذها الحديدية هذا عمل الريح .. هي التي ستهز نافذتك امسح كل ما قرأت ..

الليل لا محالة سينجلي .. والفجر قريب .. سيغير العالم بعد أن يتخلى الليل عن مجاثمته للمدينة .

فارسك القادم سيلحق بعد وقت .. هو فقط الذي يحمل هذا النورس يضيء به كل طرق العالم ..

ارجع يا هذا البدوي الى خيمتكم .. أمك كل يوم تهب دجاجتها للقبة وتنتظرك .. ومسافة العمر طويلة .

ـ عد الى ابنة عمك الغجرية قبل أن تقدم رقبتك الى المشنقة .. واعرف بأنك لا زلت صغيرا على حب شقراوات المدن البعيدة .. لأن دونها بحاراً تلتهم أمثالك يا بدوي .

وهران في : 29 جويلية 1979 م

تراتيل للزمن الراحل (1)

الذكرى هي الفردوس الذي لا يمكن أن نطرد منه ...

ج . باولو .

---

(1) الجمهورية «النادي الأدبي» 7 ــ 1 ــ 1985 .

البداية الأولى ...

.. وأنت مصاب بقحط في كل شيء ...

ذاكرتك متعبة ...

ـ هل تستطيع أن تتقيأ من أعماقك .. أتعاب السنين ..؟؟

أربع سنوات عجاف .. لا يوجد بداخلها غير القحط والجفاف ...

ـ كم بها من يوم .. ساعة ؟ ومن دقيقة وثانية ...؟؟؟

لا تستطيع التقدير .. رغم أنك عشتها لحظة .. لحظة ..

ـ اغمض عينيك أيها البدوي ..!

ارم أجلاف أحزانك .. تقيأ لأول مرة قيوح هذا العذاب الروحي ... خراب السنين الفضه من على دواخلك ...

ـــ هي النهاية .. في بداية عمرك ..

ها سنواتك الأربع تنتهي .. تغلق غرفتك .. تنهي اجراءاتك الادارية .. تحمل حقيبتك .. تشيّع الجامعة بنظرة واحدة .. تنهزم .. تتردد .. تستشعر الانتصار على كل شيء .. حتى على نفسك .. ولا تعرف من أين تبدأ نهايتك ...

تنتظر (البيس) مع المنتظرين ينقلك الى شرايين وهران .. هناك تجد الحافلة ترميك الى بواديك المحببة ..

ووهرانك التي عشقتها ستشتاق اليها...

ـــ ماذا تركت فيها ..؟ ماذا ستتفقد ..؟..

ألف سر وسر .. وبقلبك كم من لغز .. يا هذا البدوي .

ـــ ماذا تتذكر قبل أن ترحل ..؟؟؟

ـــ كشرّ في أعمق أعماقك ..!..؟

ـــ انبش ذاكرتك ...

أخبرنا عن الزمن الآتي في رحلتك المستقبلية ...

ـــ ماذا تتذكر من أربع سنوات ...؟

ـــ اعصر زمنك .. لتخرج منه نهاية المطاف .. زبدة أيامك ..

وأنت الذي تركن الى الهدوء .. هدوء التلال والجبال الصخرية العملاقة .

ـــ من تكون حتى تواجه هذه اللحظة ...

انها ارتعاشة طيبة يمازجها الجنون .. تقفها أنت اليوم في هذا الآن ...

ـــ ماذا يجول بخاطرك ..؟

هل تستطيع أن تتحدى جدار الصمت ؟؟

مزّق رتاج هذا السكوت ..

بكلتا يديك اعصر هذه الرأس الكبيرة ..

بدون شك مملوءة هي بالهموم .. والأسرار ...

ـــ أخبرنا عن الحرق الذي مزق أوصالك .. (الهم) الذي أفنى قلبك المكلوم .. أبدأ بحديث صاحبة العيون البحرية ..

عن كيتها حدثنا .. استرسل في وتريات أيامك الذاهبة كأوجاع الدهر .

ـــ اغمض عينيك ؟ .. إقترب .. تذكر .. يا هذا البدوي ...؟؟؟!!!

الغمضة الأولى ...

ـــ ماذا ترى .. فيها ..؟؟

ـــ حاول مرة أخرى ...؟!!..!!

اعصر جيدا هذه الذاكرة..!

ـــ حاول ...

ستنهمر حاملة أسرارك .. ستنفجر كعين جبلية .. بل كشلالات (نيفادا) هي مملوءة بالأسرار والألغاز ..

شريط محبب بدأ ينسكب في هدوء ...

قال :

كانت (...) صغيرة وكنت صغيرا .. وكان الحب عجوزا تكهلّ .. يحملنا على أجنحة نورانية .. يعلمنا أسرار العالم الغيبي .. و (فاتحة العهد) كانت ويا أسفاه صغيرة .. كما كنت ... وكبرنا وبدأت حكاية الدنيا ...!؟

كنا نجوب بحارا نقطع تلالا بالظمأ مشحونة ...

نسافر في قيظ الشمس .. تهفهفنا فضوات العشق الصوفي .. لا أحد يفسره .. وطال بنا الدهر سنين ..

ـــ ونسيت ...!؟؟

كل ما تحفظه ذاكرتي هو أن فاتحة العهد ...

«شظية نارية أوقدتها الأيام في قلبي الجريح ...

شعلة لا تنطفيء أضرمها القدر بين أحشائي ...

هي جمرة ألتهب بحرقتها كلما هفا طيفها الساحر الى خلجات فؤادي المنكسر ...

روحها العبقة نسيم ربيعي أتفيأ تحت ظلاله الندية ..

بريق العيون الفجرية شواطيء زاخمة بالنور ...
أقرأ فيه سر عشق رباني مكبوت ...»
ـــ آه (بينيلوب) ..!؟

أيتها الحبيبة الغافية .. عظيمة أنت كهذه الدهور الفائتة من أيام العمر .. هكذا بدأت قصتك لا أعرف لها بداية ولا نهاية ...

فقط .. أتذكر أنك تعيشين في القلب كجنين عزيز ...

والى الأبد سوف لن أتخلص من ميلادك .. سأبقى كامرأة ثكلى ... أحملك في بطن قلبي الى النهاية ..

أنت سافرت مع الغيوم .. غيوم الفجر الوردي الذي رحل بالأمس .. رفلت في الحزن والفراق مع بداية عشقك الازلي ...

نامي بخبايا الصدر أيتها القطة الوديعة ...

الافاقة ما قبل الأخيرة ...

افتح عينيك .. الآن ...!؟

ـــ سأقول لك أيها السندباد .. لقد وفقت .. في رحلتك الأولى ... هذه أتمنى لك النجاح في الرحلات الآتية ...

لم أكن أعرف من قبل أنك سباح ماهر في مياه الماضي ... أكاد أصرح بأنك تعرف مناجاة الغيب ..!

إذن ... أعد مرة أخرى رحلة الماضي ...

الغمضة الثانية ...

أغمض عينيك ..!؟

ـــ ماذا ترى ... حاول الولوج أكثر ...

أتمنى أن تكون هذه الاستفاقة في جحيم عالمك المحبب ؟..!

ـــ أبحر ..

في ساعات الوحشة .. تنبض أحاسيس طفل ينام بداخلنا .. تستهويه شهوة جارفة يطمح في النزوح الى الغيب ...

الى غابات مقفرة لا نهاية لها يترفل في شرود جنوني ...

من تعب الهوامش الراحلة يستفيق ..

يتطفف .. وبشوق جارف يزفر بحر التعاسة الموحشة ...

ـــ ايه ...!!!؟؟؟

وفي صدر الأيام تنام الحبيبة قطة وديعة ..

من كل صوب تهاجمها ألسنة نارية ..

تهرع الى العطش المتفشي في رحم عمرها الباقي ..

تجري .. وتجري تحاصر .. تستغيث فلا تسمع من

حولها .. لا تسمع غير صدى توجعاتها .. تحاول التملص وبمخطاف قدري .. يجثم الأزل على قلبها الطيب .. فتلدغ ..

ــ من هذه اللحظة جننت أنا ...

كل الناس يعرفون بأنني مجنون .. بعيوني هذه رأيت جان دارك .. تحترق .. تقدم نفسها قربانا الى هذا الكهل (..) الذي التهمنا بعنف ..

ــ آه من أين تبدأ ... وأنت شقي ...؟؟

تحمل صخرة (سزيف) على عاتقك ..

اصعد بها الى قمة الجبل .. تشبطّ .. بقية عمرك ...

ــ قال : أين صاحبة العيون الفجرية ..؟؟

ــ قالوا أوصلها العمر الى نهاية العشق .. (..) ..

اذن واجه أيها البدوي ..

واللحظة هذه أصعب ما يكون في العمر .. فمن تكون حتى تواجه ما يخبيء العمر ..

العمر هذا تعاسة .. تضاف الى قائمة تعاساتك .. هذه اللعنة .. يقال .. أن الثراء أتخمها حتى عاد قلبها لا يعرف الا الأرقام .. وأنت تكره هذا باتفاق ...

يتطفف في تزاحم صوفي الى ذاكرتك هذا الانين .. تطير

أشواقك الى الروح البعيدة عنك تعانق هناك صاحبة الفجر الراحل ...

يخبئها صدرك كقطة وديعة ...

الهذيان الأخير ...

في لحظة الترهل الروحي ألعن الحاضر .. أسافر بعيدا عن هذا التابوت الكوني التعس .. أعيش دقائق العمر الوردي بعيدا عن هنا .. الى حيث لا أحد يرقبنا أكون ..

معك أيتها النسمة البحرية ..

ساعات الالهام القليلة في العمر .. أقضيها معك ...

ولكن يا أسفاه أستشعر لعنة الوجود تزاحمني في هذا القيظ الدائم .

ـــ ماذا أقول ..؟

ومن أين أبدأ ..؟؟

كل العالم ينصحني لا تسافر ..؟ لا ترحل ..؟

بل افتح عينيك حتى ترى وجودك ..!

تتبع فقط ساعة الرحيل دون أن تسافر الى فضوات الغيب .

وتأكد من شيء واحد .. هو نهايتك يا هذا البدوي ...

نهايتك المترقبة تصلك في غير عناء ...

شيخوخة العمر كنت تتصورها .. ضعفا في الجسم ..

ولكنها عكس ما ترى ...

(شيخوخة) هي نهاية حبك العظيم هذا .. أحببت أم كرهت .

الاستفاقة الاخيرة ...

في حلمك الغافي تسترسل .. تموجات الحنين ترميك الى شواطيء الزخم التي لا تطيق آخرتها ..

فمن تكون حتى تواجه ساعة قيء كهذه ..؟؟

كم حب جرف قلبك ..؟؟

ــ بل لماذا الأرقام ..

اذن عد الى وعيك ...!

في زمن ما كان أكره شيء الى قلبك أن تبحر في عالم بعيد عن ساعتك ..

ــ أين أنت الآن ..؟؟

هل قلت شيئا عن .. سنين الجامعة .. وصاحبة العيون الغجرية .. والحرقة التي أدمت فؤادك الكليم ...؟؟

ــ لا .. لا ..!

أنت سوف لن تقول شيئا لسبب أو لغيره ..

والأصح لأنك تريد أن تترك خبايا صدرك تحتفظ بكل شيء ..

أسرارك وأحاديث صاحبة العيون البحرية لا يعرفها غيركما ...

وهران في : 1981/01/09 م

مقاطع من أغنية جنونية .. (1)

الاهـداء :

الى . ش . ف .
الطفلة الساذجة التي كانت وذهبت
بعد أن أخذت من أيامي وعمري .
أين ما كانت .. وكيفما كانت .

ب . ط .

---

(1) مجلة آمال : العدد . 58 . سبتمبر 83 .

المقطع الأول :

في هذه الأيام اكتسبت عادة غريبة ... أصبحت أتلهف موعد الرقاد لالتقي بلحظتي المنعشة ... أطير في أحلام اليقظة اليه ... هناك في الفيافي أمخر عباب عينيه الصغيرتين ... أنسجم بروحه الطيبة .. أضغط على أصابعه الرقيقة .. في صحو أرتعش ، أجن ، تغمرني طيبوبة القدر ..

تسري مع دمي سخونة لذيذة ... تكسوني رعشة شيطانية يلتهب جسدي المعذب وفي صوفية أتلذذ انجذاب يسمو بروحي الى الأفق البعيد ...

أتخدر .. أغيب ألتصق بعنف مع المخدة .. أهجع الى نوم عميق ...!

في منامي أرى ... :

— حبيبي عندليب الايام الماضية والآتية يسند رأسه الى صدري ... تحت شجرة الصفصاف العاتية أستمع معه الى

حفيف وريقات متناثرة تحدث خشخشتها أنغاما جنونية في آذاننا ...

تغيب منا الكلمة .. نسكت .. نهدأ .. نسافر بعيدا في فلوات العشق الصوفي .. نسبح .. نلعب .. نجري .. نرقص .. نركض هناك في العراء لا أحد يمنعنا ...

يعتدل في جلسته .. يرشقني بنظرة محمومة .. يضغط على تورد عنقي .. يمتص من بضوضة خدي أوجاع الدهر .. يطبق شفتيه مع فمي في تلهف .. يضغط بوحشية على جسدي الهزيل ...

كان لهيب النشوة يمدني بدفء .. أحس السخونة .. الجنون .. العياء والسعادة تجري مع دمي كوحش .. ألتصق بعنف جسده .. أطير .. أصير قطعة منه .. أغرس أظافري في صدره .. أعض .. ألثم .. أقطع من لحمه قطعا ...

أستفيق عندما يؤلمني ضم المخدة ... أجد وجعا في كل الأجزاء من هيكلي البض ... أشعر بكراهية ... عياء ... خوف سخونة كاذبة هكذا صرت من أيام .. هي هذه عادتي الغريبة .. رغم تعاستها صرت أحبها باتت عزائي الوحيد فيك .. يا عامر الحبيب .

المقطع الثاني ...

مع مفاتن قامتي الأهيفة .. زرع الخطيب الأول عيونا

ظمئى ... سرحت في أنحاء جسدي البض ... أكلت وارتوت من رشاقة هيكلي ... ولكنني كرهت ... ومللت هذا الخطيب الأصهب ... شواربه الصفراء كثيف شعرها ... لعنته في نفسي ...

وكان الخطيب الثاني أسمر .. فاتن الطلعة قالوا :

ـ هو مثقف ويكتب الشعر أحتقره .. ألم يخرج للقائه .. بكت أمه توسلت وتوجع الشاب عندما استشعر الاهانة .

ـ ابنتي نورة قد خطبت ..

هكذا قالت لهم أمي وهي تودعهم بنظرة اشفاق .. أمام باب الفيلة لمحت الشاب من ثقب الباب يتقطع حسرة .

وجاء .. وجاء .. ومرت الأيام متثاقلة أو سريعة .. لا أعرف بالضبط الى البارحة .. دخل أبي رائق المزاج .. على تجعدات وجهه الشرس تختفي غبطة الفرح .. بين شفتيه ابتسامة خجول في تفرس ..

يقول في نفسه :

ـ هي الفرحة قد حققتها ..!

أمنية كبيرة أن أكون صهرا للحاج (عظيم) بيت الحسب والنسب ..! انه يمتلك من الأموال الكثير .. والكثير ..

ودون شك ستكتمل سعادته بزواجه هذا .. للمرة السابعة رغم الخمسة عقود التي اجتازها بسنتين .

أمواله الكثيرة يريد أن يصرفها في الحلال .

هكذا قال لأبي .. أقنعه بأن أكون لديه مكرمة ...

أبي الحاج قاهر صاحب التربية الحسنة .. اشفاقاً على بناته لا يزوجهن إلا لامثال الحاج عظيم .. وفرحة أبي عجيبة فكيف لا أكتسب عادة أغرب منها ..

ــ آه عامر .. أحتضر أنا .. بعيدا عنك ..

المقطع الثالث :

عامر أيها الحبيب ...

وهذه آخر آهة تسمعها مني .. كم أنا معذبة .. الزمان يجري .. الحلم يذبح والدفء يستحيل ثلوجا تنام في القلب وأنقاد في الأخير ذليلة مبحوحة الكلمة ذليلة الى بيت الحاج عظيم الكهل الكثيف اللحية مبحوحة لا يسمعني سامع غير صدى أنينك في الفيافي البعيدة .. نعجة كنت حين قدمني أبي لمرسم الخطوبة الشكلي ...

نويت الانتحار .. بكيت .. مللت وبكيت .. جمدت الدمعة في عيني مثخنة كنت بجرح الأيام ... والشقاء دبابيس ألعقها ... عنوة أسلي همومي باجتذاب أطياف أيامك الراحلة ... أحلام رعشتك الجنونية .

أراك في صحوي ومنامي ... حين كنت أستحي منك ... وكانت ابتسامتك ترهبني ... يقطعني الألم أشلاء ... تهدي اليّ العشق جمرة ملتهبة ... أقدم لك الجفوة الوحشية .. والسكوت .

كنت تعذبني بجنونك .. وجسدك الناري الملتهب وحش مفترس أبتعد عنه خوفا من الاحتراق ... ولكنني أحترق .. تضطرم بداخلي نار كألسنة ثعبان أسطوري .

أبكي كنت وأضحك بدون سبب .. أجن من حكاياتك .. عن عشقك .. وها اسمك بين يداي يحتضر .. كما كنت أنا بين يدي أبي من ساعات .

ــ نعم عامر أنت تحتضر ... ولدغة الثعبان ستودي بحنانك من قلبي .. ستمحي الأيام كل حكاياتك وعشقك البري .

ــ ماذا أعمل ...!؟

سأذكرك أيها الوفي .. عندما تهب نسمات البحر .. وتهتز أشجار الصفصاف في عناد .. عندما تمحي الشمس اسمهامن الكون .. وتتوارى في رحمها الأزلي .. أتذكرك ... أنت ... عامر ... ذاك الطيف البدوي المحموم بجمرة العشق الصوفي .

وذاك الجنون الملتهب في الأحشاء يكون لحظة انسجام

بين روحينا ... أضغط على المخدة بعنف ... أذهب في رحيل العمر ... ومضة التصوف العالي ..

أسكن الغيوم وفضوات السماء السابعة ... وأراك حين تنتابني نشوة الحب أنام وأراك في الحلم كالعادة ... أسكر ... أجن ... وأرحل بعيدا عندما تكون أنت الذي أرى ...

المقطع الرابع :

أراك أنت يا عامر :

زهرة برية نبتت في الصخور والأوحال ... شقائق النعمان ... ورد الدفلة ... عرق السوس ... شجرة عرعار تمايل لهبات نسائم جبال القصور الشامخة .. (يازير) الفيافي القاحلة .. قرنفل الغيد الفاتنات .. شجيرة شيح نامية في رمال صحرائك الجميلة ...

أتمناك أيها الحبيب .. نسمة برية من الصحراء تهب على شطآن الكثبان الرملية الراسية هنالك ... وراء التلال الوعرة ... قبالة الجفاف البشري ، حيث تنعدم الرحمة ...

أنشدك غيمة متنقلة في ليالي الجفاف ، رياح عاتية تسوقها الينا ... حيث العطش ... وجفاف الآبار الروحية يعلن التوبة .. ينتظر ويترقب .. وباء العشق ينتشر في كل بقعة .. يروى ذاك الظمأ وهذا الجوع الرهيب .. ينهب .. يقطر .. يملأ رحاب هذا الكون المقفر وحش الرهبة والخوف المعلن ...

أقطفك عامر ... من تلالك الجرداء زهرة ندية ... عطرة أشتم رائحتها الزكية ... وحيا قدسيا أصلي بتراتيل نغمته الصوفية ... (نايا) أغني على أوتار رحيل العمر ليالي الأعراس الصيفية ... وأبناج البدويات يرقصن رقصات الهنود الحمر للمحمومين بحب الخلود ...

أهواك عامر ...

نخلة مياسة في الفيافي أطوف معك كل المراسي نحمل حفينات فيروز الكثبان العملاقة .. نقطف .. نجري .. نلهث خلف الحلم الرباني .

نسكر في أعراس خيام التلال البدوية ... أركب معك أهواء العمر وأحراش الدهر الفاني ... وأجن عندما أذكرك ... وأتذكر اسمك المحتضر .. لأراك في الحلم .. أصبحت عادة غريبة في القلب .. أفيق من نومي .. ألثم الوسادة .. أحس الجنون والعياء .. تسري مع دمي اغفاءة شياطين اللوم والرهبة .. انه وحش مفترس يسكن الجوف .. ويتمرد داخل أحشائي ...

المقطع الخامس :

آه عامر ...!

من بعيد .. أبحث عن ملاجيء الدفء فيك .. هناك حيث أنت في الصحاري التي حدثتني عنها .. في فيافيك

الساحرة تخالني أطارد الغزلان معك على المهارى في تلك الربوع نسبح في الغيب ..

نجري خلف المها .. تلفعنا نسائم الجبال المنعشة .. أستمع معك الى سكون الكون العظيم هنالك .. نرى الجبال الرملية العملاقة تعكس أشعة القمر وبياض السكون الخالي يلمع كوميض الدهر الفاني هذا الذي خدعنا ...

والنجوم تتلألأ قريبة في الرحب ... لا تحجبها غيوم ..

الخطار كانوا يهتدون بها في سيرهم ليلا الى بلاد السودان زمن المجاعة صرت معك .. أحببت الصحراء والمناخ الوهراني يجثم على صدري ليلا طويلا طويل لا ينجلي .. البحر كرهته ومللت أسواق المدينة .. الزحمة .والمارة والشوارع الطويلة لعنة التحضر .. أريد الرمال الذهبية .. أنشد الانطلاق .. أهوى الحرية .. عصفورة تغرد على أوكار نخيل الفيافي .. طفلة صحراوية تقطع التلال .. تبحث عن الحطب ترعى خراف الضأن الصغيرة .. أكون غزالة برية تجوب (الحمايد) وراء قطيعها الوحشي ..

آه عامر ...

ـــ أين الحرية ...؟

أتخلص من أبي وجوره .. زواجي اللعين هذا محتم ...

ألعن الخطيب المكره .. أبصق على هذا العالم الرهيب ..

أطير في أحلام اليقظة اليك .. الى الفيافي القاحلة حيث العراء والخلاء .. أكون جزء منك ..

المقطع السادس :

عامر أيتها الروح السارية في دمي ...!

هل تذكر .. عندما أتلاشى عن ناظرك .. على الأقل من أجل الذكرى .

ـــ عندما كانت نورة .. نورة .

ـــ وكان عامر .. عامر .

ـــ وكان الحب ... حبا .

ـــ والايام كانت .. أياما ...

قبل أن يحتضر اسمك بين يدي ...

حزينة على هذه الأيام المتثاقلة منذ أن ذهبت بعيدا عني .. الى صحرائك فيافيك القاحلة المحببة عليك .. تعزّها .. تركتني بين أسنان الثعابين هؤلاء والزمان يجري .. هو هكذا ..

مزاجي انعدم .. ابتسامتي استحالت دمعة رهيبة .. جسدي اعتراه هزال في الأيام الأخيرة ...

نحفت .. وذاب ماء الابيضاض الذي كان يعطي تقاسيم خدي جمالا وبهاء .. حزنت .. بكيت .. صرخت .. ذابت

مقاومتي .. قدمني أبي للمساومة العلنية فكنت رغيفا ساخنا في فم أحد الجياع المساومين ...

الكهل الكثيف اللحية .. اشتراني بتلهف .. ولم تبق الا أيام قلائل على حفل العرس .. بل قل المأتم ...

ــ أحتضر أنا .. واسمك يحتضر ...!

كل شيء صار رهيبا .. تحدوه العتامة .. ظلام في ظلام .. حزن .. كابوس الشقاء يقطّر رصاص الفناء في روحي ..

أنت تأخرت ويا أسفاه .. (وصار رحيل العمر قريبا الى بحر الظلمات قريبا قريبا) .

لم يبق منك الا هذا الاسم المحتضر .. وسوى العادة الغريبة .. وقت الرقاد حين ينام الناس .. أجدك بجانبي ..

ألثم شفتيك في سخونة كاذبة .. وأضغط على المخدة .. أنسجم بروحك الطيبة .. البعيدة عني هنالك في فيافيك القاحلة .

(حبيبتك المعذبة . نورة . ش .)

وهران : أوت 1979 .

لحظة توحش

يا ساقييّ أخمر في كؤوسكما ،
أم في كؤوسكما همّ وتسهيد ؟
أصخرة أنا ، مالي لا تحركني
هذي المدام ، ولا هذي الأغاريد .

المتنبي .

الوسادة يضعها تحت رأسه ...

ينسدل الجفنان على بعضهما ..!

وأمام المخيلة (اليقظة) تمر صورا مختلفة ...

يستلذها .. يعانقها من بعيد ...

في لباسها الشفاف تستعرض احدى حوريات الهند جمالها الأخاذ .. مفاتنها النارية تلهب فضوله ...

ـــ ويتحرك الوحش ..!؟

مارد عملاق يهز السلاسل الجبارة التي قيدته .. داخل جوفه يصارعها للفك يحاول تكسيرها في عناد ...

يتأجج الداخل ..

اعصار دموي كموج عظيم يخنقه ..

يفتح الجفنان ...

ـــ لا يجد بجانبه شيئا غريبا كل ما بغرفته معتاد ..
وروتيني ..

كتب مبعثرة .. فراش غير منظمة ...

ـــ ماذا حدث ..؟

انها هزة الروح الدنسة .. تعذبه .. وبداخلها شيطان جهنمي يفككها .. فقط في سنواته الأخيرة استثقلته ..!

في أعماقه أحس به عفريت ينهش اللحم .. بدون أن يأكل منه بطريقته الخاصة .. وعلى قدميه يقف كعملاق أسطوري .. لا يعرف الرحمة ...

ـــ ويجره ..؟

يستسلم له في وداعة .. وينقاد كمدمن ...

من بداياته الأولى كانت الخديعة ... عندما جاءه في صورة ملك ... يقدم له نشوة سحرية عظيمة ... تستلذها الجوارح .

في غفوته يوقفه أمام قبر الحبيبة الراحلة .. يعانق .. ويداعب ..

وينام كطفل جريح ولذة الشبق تبقى بحرارتها (جمرة)تشع بطيبوبها تفتح شهية غريبة ...

كان صغيرا .. يهفهفه بدعابات التصابي الصبيانية ..
يربت في لطف على أخاديد الصغر الأليمة ...

يجد دفئا رهيبا .. ونعومة .. حنان جارف للمسك ..
وقبض الريح بكلتا يديه .
_ آه ...؟!
ما أطيبها .. وما أتعسها .. وما أسعدها لحظة ..؟!

ولكنها كاذبة ...

وللأسف ..!

لم يتفطن ذات لحظة ..

لم يشعر بأنه يستدرجه نحو نهاية مفجعة ..؟؟

لم يجل بخاطره بأنه يستعبده ...

كانت بدايات كاذبة .. لنهايات حقيقية ..

_ هذا العملاق الوغد .

_ ما أتعسه .. وما أعذبه ...

لذته رهيبة ولم يشعر المسكين به ...؟

لقد كبر الآن ، أصبح يسيل مع دمه كموج جارف .. يحاول قتله في ذاته .. من الوسط يستله كسيف يحطمه على صخر ..

ولكن للأسف ...

سرعان ما يقف على رجليه كعملاق ويحطمه .. هو ..

يقوده في وداعة الى الحلم .. حلم اليقظة ويداعبه في استسلام ...

هذه حكايته ...

من غفوته يستفيق أحيانا .. ولكن الوغد ينومه .. يتحرك بداخله كثعبان يزحف لازدراد أنفاسه ..

أنفاسه اللاهثة تتلاحق ..

ـ يهجس ...

يلعن كل شيء .. تعب العالم يحمله على عاتقه .. هموم الدنيا تثقله ..

صخرة سزيف عقاب .. بل ليست صخرة .. انها جمرة بكل حجمها وعظمتها .. توقد الأحشاء وتعذبه ..

كان يحاول أن يراوده .. ويلاطفه .. ولكنه كفرس جموح لا يحب المطاوعة يشتهي الانطلاق ...

ـ وماذا يفعل ...

يعود الى نفسه .. يسائلها عن هذا الطفل المدلل أصبح يعرف أوقات استفاقته .. فلا بد من نهره .. بل لا بد من تدليله ..

وفقط كل ما تأكد من ذاكرته .. بأن وحشا يسكنه في الداخل ...

وأصبحت عادة غريبة .. ورهيبة ..

يقفل الجفنان في تباطؤ ..

احدى حوريات غرناطة تداعب فضول وجنتيه بحنان أمومي تقبله .. فيتأجج تضطرم في وسطه نارا بدون لهيب ...

تتآكل في الداخل ...

وفي الأخير يهدأ قليلا ...

ملكة سبأ .. جمال أنثوي كبير ..

تمثال الاهي تشع به جمرة .. تورد صبياني ..

في استحياء تقف أمامه ..

تنحني نازحة رداء صدرها ..

يتجسد جمال الاهي خلاب أمام ناظرتيه .. يرمي أنامل يده اليسرى لتداعب فتوتها ...

و ......

ويتحرك الوحش بقوته الفارعة ...

بصورة أقوى من الأولى .. ليس ماردا في هذه المرة ...

انه رضيع صغير تباطأت أمه بحليبه .. عجزا منها ..

يصرخ بدون انقطاع .. ويزداد بكاءه حدة .. وتلتهب الأعماق .. نار قوية يشع لسانها من حلقه .. يضرم هذا الفؤاد الساكن .

أحد عفاريت جزر ما وراء البحار السبعة .. بقامته الفارعة .. وعضلاته المفتولة .. يتثاءب بداخله .. فيمزق كل شيء وتحدث هزة قوية .. يرتعش الجسد المحموم .. وتُفتح العينان الكبيرتان :

ـــ يسائل نفسه ..؟!

ـــ أين من أحشائي هذه القوة الفارعة ؟؟

فلا يجد غير لذة صبيانية تمصمص حلمة ثدى الحلم الناري .. تسيل لعاب الطمع .. بدون شك هناك اضطراب في كل شيء .. اهتزاز في المفاصل .. تورم في بعض الأجزاء ...

ـــ هي لذة غير سوية ...!

وهذا الجسد كتلة هامدة .. عجينة واحدة .. طينة مملوءة بالنار من الداخل .. الشهوة الجنسية توقفه مصلوبا أمام كل نظرة ...؟؟

يغمض الجفنان ..

يتذكر الأمس ..

شواطيء وهران ... على ظهره كان ملقى فوق الرمال ... على جانبه الأيسر كان يرى فاتنة ، لا تبالي بالناس .. تقرأ في كتاب متوسط الحجم ...

في عينيه صور مختلفة ...

ـــ أحيانا يراها قطعة شمع ويتخيلها بعض الأوقات تمثالا اغريقيا .

وفي بعض الفترات يظنها غزالة برية تغري بجمالها الخلاب ..

ـــ انها عروس بحرية ...

في لطافة تنهض من مكانها .. تجلس عند رأسه .. تربت بوداعة على صدره .. تمرر يدها على باقي جسده .. لا تكترث بمن نظر اليها ...

خصلات من شعرها الحريري تحدث حفيفا على وجنتيه وهي تداعب وجهه ..

ـــ في استحياء متناه تضع فمها على شفتيه ...

ـــ لا تضغط ..!؟

تعيدها مرة أخرى ..!

وبشراهة تمتص من شفتيه بقوة ... تضغط .

يرمي ذراعيه على كتفيها .. تتملص .. يجذبها .. تصارع .. تصرخ .. يتفطن له الناس .. تنظر اليه العيون من كل صوب ..

ـــ و .. و ..!

لا يتحرك الوحش هذه المرة .. يتوارى في الداخل .. يتمطط كثعبان منهزم .. يحاول أن يخفي رأسه ..

ـــ الحياء انعكاس على باقي أعضاء الجسد ..

بطل مهزوم في آخر لحظة .. لحظة التوحش ..

الوحش صنديد يرفع رأسه في شراهة .. يدفع الانسان الى المخاطر .. الآثام العظمى التي يقترفها ..

يستشعر الراحة الكبرى بعد ارتكاب الخطيئة ..

هذا من يكون ..؟

ـــ انه مارد الدواخل .. الجبار المعاند .. ابليس الخبيث .. في كل الحالات كان الجبار ماردا يقطع سلاسل العرف الالهي يمتص رحيق العمر الدافيء من ذات الانسان المنهزم .. الضحية يفتح عينيه في تباطؤ ..

ـــ يرى كل شيء اعتيادي كسابقه ...؟؟؟

لا يوجد من حوله الا الروتين ...

وساعة الحلم اغفاءة خاطفة يسبح فيها العشق الوهمي خلف الغيوم ...

بينيلــوب

أنت أيتها الحبيبة ...
شظية نارية أوقدتها الأيام في قلبي الجريح
شعلة لا تنطفيء أضرمها القدر بين أحشائي ...
جمرة ألتهب بحرقتها كلما هفا طيفها الساحر
الى خلجات فؤادي المنكسر ...

ب . ط

---

(٠) جائزة الولاية الوطنية . نوفمبر 1984 .

وقفة طللية ..

ــ الفيضان سر غال من تجربة دهر طويل ...

أهوال ومخاطر تندفع بعفوية .. غضب جارف يجتاح قرارى الصدر المملوء بالمتاعب هو .. غضب .. غضب من العمق على الناس و ... كلهم ... هو عشق ...

تجربة .. بل بحر مضطرب يزخر بالشقاء والراحة ...

لحظة احتضار عاشها انسان ... ما ...

عين برية ماؤها زلال ، تنهمر ذات لحظة من جبل أرعن غاضب ينطلق صوته مدويا كعفريت أسطوري يحطم كل شيء ...

بالأسرار ... والأسرار ...

* * *

ــ الخبر ...

الآذان تلتقط الخبر بسرعة البرق ...

الخبر يسري مع شرايين قرية (عسلة) الصغيرة كثعبان أسطوري في تلهف يسرع الناس ..

شيوخ .. عجائز .. أرامل القرية .. عوانسها ويتاماها .. يلتفون كلهم .. جمع كبير جدا يلتقي في حوش مكان الحدث ...

في السير يسرع من كان بعيدا .

ــ قالوا :

الشيخ (السي محمد) قطع الكلام .

ــ ماذا أصابه ..؟

لا أعرف .!

ربما سيموت ..

ــ قالوا :

فقط اليوم بعد صلاة الفجر ..

حزن كبير .. وبدايات عويل ..

بدون شك سيمزق الناس ملابسهم .. بل وجوههم ..

ــ انها الكارثة ..!!

لم تستطع الصالة الواسعة أن تضمهم كلهم ..

وجوههم وعيونهم مصوبة نحوه ..

ملقى على ظهره .. مسحة بيضاء تعم وجهه الجميل .. ولحيته الممشوطة تبدو في وقارها المعروف أكثر بهاء ..

عيناه الكبيرتان تنتقلان أحيانا بين الجموع .. لسانه لا يستطيع الحراك .. حاول أن يتحرك في مكانه .. عياء .. وثقل .. وصعوبة في الجسد الهامد المثخن بجرح الأيام وتعاسة السنين الطويلة في الجبل ...

أماء اليهم .. فهموا ..

— يريد الماء ..

قنية (حلفاء) صغيرة تعوّد الشرب فيها من صغره .. ساعدوه على قلبها في جوفه .. أمعاؤه كانت تحترق ..

يروي مفاصله .. ويشبع نهم السنين وظمأ الأعوام الخوالي ..

في نفسه .. تحدث شاب يعرف السي محمد جيدا ويستقصي أخباره ...

— انك أيها السيد الوقور «فيضان» .

شلالات عظيمة ستنهمر الآن .. نيفادا .. بل عيون طبيعية تنفجر في عفوية .. تسيل بأحداث وحكايات عمر طويل .. تروي للأجيال طيبوبة ناس كانوا وذهبوا بغير وداع ..

في داخلك يا السي محمد مارد متوهج يسعى الانقضاض ..

يتطفف .. يستعيد نغمات ربيع الوجود الكلي ..

يكسر سلاسل الجموح الخافت وينفلت ..

انها لحظة الاحتضار ...؟

تروي بعفويتها ألف أسطورة .. وسر الأسرار ..

وأنت أيها الشيخ لا تعرف الفيضانات من قبل ..

دواخلك تعلمت حفظ كل شيء ...

على طبيعة بدوية نشأت ...

الصفاء وطهارة القلب المملوء بحب الأرض ..

عفة تلك الفيافي الهادئة هناك .. وشموخ هذه الجبال الراسية هنالك .. سلسلة القصور الشماء (تامدة) و (بالسباع) و (أشماريخ) .. هي التي علمتك الأسرار والأهوال ..

كلمات .. لم يحن لراعي الابل أن يعرفها لولا الجبال العظيمة .. وما كانت تحمله من أساطير الورى الغابر في عتمة الماضي التليد ..

هنا كانت البداية ..

الاغماءة الثانية ..

صراخ .. وبدايات عويل وبكاء نسائي خافت .. ولحظة يسكن كل شيء ..

تلتفت الرقاب الى الباب .. تلتقي العيون بالعيون هناك ..

ــ هل من قادم ؟

في وقارها تدخل هذه المرة مخطوفة القلب .. وجهها متغير ..

ــ الحاجة (خيرة) لا تخافي .. يقولها كهل .. ولا ينتظر الجواب من زوجة السي محمد ورفيقة شقائه في الجبال والمخاطر ..

تتقدم منه .. على غير عادة منها تجلس عند رأسه .. وتضعه في حجرها ..

تمرر يدها الهزيلة على وجهه .. تمسح العرق ..

تحاول أن تعانق رأسه تضمها بعنف بين يديها ..

تحتلب منها حنانا أموميا باتت تخبؤه في حنايا الصدر المثقل بالوحشة ..

ــ يتعجب الشيوخ ..!

تنقسم الحيرة .. تزداد حيرتهم ..؟

الحاجة خيرة تعانق زوجها أمامنا .. يقول أحد الشيوخ في نفسه .. تستحي العيون ..

هناك من يبرر .. — لأنه مريض —

هناك من يقول : قلة حياء ...

والمعروف أن الحاجة خيرة امرأة طاهرة عفيفة ..

ماذا حدث ..؟

في أعماقها تستشعر لحظة الفراق الذي لا لقاء بعده ..

هي نهايتك يا محمد ..

خير الأزواج .. ابن هذه الربوع الرهيبة .. كم تمنيت أن أموت قبلك ..

— ولكن الأقدار ..

كم تمنيت أن أستشهد معك حين داهمنا العسكر في مغارة الذئاب ذات يوم .. أو عندما قطعنا لوحدنا (حمادة) المغرب ..

هل تذكر .. أيها الحبيب ..

لا تجيبها غير دقات قلبها المتتابعة ..

وكانت عيونه الداكنة مملوءة بالحزن .. ينظر الى الناس في اشفاق .. عيناه تتحدثان .. يملأ نهمه من صفحة وجهها الذابل .. يتمنى لو يبقى معها لوحدهما لحظة خاطفة ..

ـ آخر قبلة على شفتيها ..

يعتصر من ذاك الفم نفس ثان ... يجتذب هموم هذه الاوجاع لترحل معه .. ستكون خيرة سعيدة في الحياة .. بعد ذلك ..

ينظرأخرى الى عينيها .. ويتذكر :

قوافل الرفاق .. تنفتح صفحة كاملة من الأحداث ..

الشهداء يمرون الآن .. الواحد تلو الآخر ..

في صفحة وجه خيرة .. النبالم والأسلاك الشائكة ..

وشياطين الحلف الأطلسي .. عفاريت بلا قيود ..

وجبل (تامدة) العتيد تطوقه سحب رهيبة .. تخنق عمقه الشامخ في غير اشفاق .. كتل الثلج تسمرت .. باتت لسعات بردها سامة .. كأي طلقة من رشاش أحد المرتزقة المخمورين ..

كنت والرفاق .. وكان الدرب طويلا ..

والحرب ضروسا .. والند قويا .. بل جبارا عاتيا ..

حب الأرض يهفهفنا وأجنحة الحرية تلمع كبرق خاطف يقسم رحم السماء من وراء الجبال تحثنا على المسير ..

الى الأمام أيها الرفاق ..

نحمل أمتعتنا ونرحل في جنح الليل قبل الصبح ..

الى الأمام ...

كلمة السر الوحيدة .. نتراشقها .. تختطفها الآذان دافئة كلهيب ألسنة نارية لا تنطفيء ..

حب غجري طاهر في قلب بكر بدوية .. باق على فطرته ..

ناعمة كريش هدهد يتراشق نغمات التصنوف الحيواني مع الحبيبة القريبة ..

الى الأمام ...

كنا لا نتوقف .. نزحف .. نلهث .. نجري خلف سراب الطيف البعيد عنا انه منال تحرير الأرض الطيبة ...

شبر منها أقدس من مليون كافر من وراء البحر ...

قطعة من قدسيتها لا تقارن بأموال فرعون .. بحورية من جنان الخلد .. عذراء بتول لم يمسسها بشر من قبلنا ..

وبعض الأحيان نتخيلها لغزا ربانيا ملفعة بخرقة بيضاء نكون أول من يفضض عقدته الحريرية ..

وكنا نسير مع الجبال والوهاد ..

أنا وبوشريط والسندوفة وكل الأبطال ..

رحمهم الله ... وطيب ثراهم بجنة خلده ...

ـ كم أتذكر ....

وماذا أتذكر ...

كنا صغارا نرعى الابل .. وما تحتفظ به الذاكرة شيء يسير .. جدا فقط في أحد الأيام .. دخلت عليهم فجأة .. في خيمتنا كانوا جماعة متوسطة يتدارسون أمورهم بينهم ..

ـ انبهروا .. بل خافوا في البداية أن أبلغ عنهم العسكر .. احتقروني .. في النظرة الأولى ..

قال أبي :

ـ هذا ابني محمد .. راعي ابل الدوار ..

لم يجبه أحد ...!

أرهبتني عيون بوشريط .. حادة كانت ومخيفة ..

ولكنني أحببته .. رأيت فيه ملامح الرجولة والعظمة اللتين بحثت عنهما في داخلي طوال العمر ...

لم أصافح أحدا ...!

ـ بادرني رحمه الله :

ـ هل تعرف من نحن ..؟

ـ لا .. قلتها في تلعثم وخجل ...

ـ ولماذا نلتقي ـ ونحمل هذا ـ وأشار الى بندقيته ...؟؟؟

ـ لا ...!

من يحكم بلادنا الآن ..؟

ـ لا .. لا أعرف يا سيدي ..!

ضحك الجميع .. الا أنا .. بل رافقتهم بابتسامة في الأخير عندما أحسست بخيبتي حملقت كل العيون في قامتي المديدة ...

وافترقنا مع الفجر ...

ذهبوا الى الجبل .. وأحللت أنا أعقلة الجمال لأرافقها الى المرعى .. وكانت بداية ..

قلبي الفتي لا يعرف الأسرار العظيمة ..

أصابعي لا تتقن غير نغمات البدو على (ناى) لخماسي الذي تعلمت الضرب عليه من صغري .. وتمر الأيام .. الى أن جاء الموعد .. مع بزوغ فجر أحد الأيام الممطرة .. عقلت الجمال على عجلة من أمري .. حملت قربتي الصغيرة ومدين من التمر .. ورحلت بدون وداع .. فكرت أن أخبر أبي .. ولكن خفت ..

كان الظلام دامسا .. وشعاب الجبل مخيفة .. ولأول مرة تتحقق رجولتي ..

ـ لماذا لا تكون عيوني مخيفة ورهيبة كبوشريط ...؟!

ـ والى متى سأبقى في رعي الابل ..؟؟

وجدتهم بعد مشقة .. مسيرة أيام ..

وهناك في تامدة الحبيبة كنت مع الرفاق ..

بدأت طباخا .. وبعض الأحيان أسليهم بالضرب على الخماسي .. كل المراجع كنت أتقنها ..

ثم انتقلت الى رتبة حارس ثانوي .. وبعد حين أصبحت حارسا رسميا .. تعلمت الرمي بالعشارية ثم البلج .. وبعدها تخصصت في قطع الأسلاك .. لأن أصير في النهاية الى حامل أسرار الكتائب ..

حمادة المغرب قطعتها مرات عديدة ..

المعارك أشارك فيها .. وخاصة قطع الطرق والهجومات الفجائية كنت أحبذها لأن بوشريط لا يستعمل غيرها ..

الحياة عادية جدا في الجبل .. فرق كبير جدا بينها وبين رعي الابل .. هذه هي باختصار قصة بل خيوط أسطورة طويلة ..

ـ لا أستطيع أن أفصلها ..

ـ آه .. زوجتي خيرة ..!

كم أنت عزيزة وحبيبة ..؟

المرة الأولى التي أشتاق اليك فيها وأنت بجانبي ..

ثلاثون سنة مكثتها معك كلحظة خاطفة ..

ــ أحتضر أنا أيتها الحبيبة ..!

ــ ما أصعب أن أموت بين ذراعيك الآن ..

ــ كم تمنيت أن أستشهد بعيدا عنك ؟؟

تحت لواء قضية ما .. بل أنت القضية التي شغلتني .. أنت والأرض شيء واحد حملتك معي كسلعة في كل الهجومات الخاطفة ..

لم تكوني ملكا لي الا في بعض الأشياء الخاصة ..

كل الرفاق كانوا يجدون فيك الأخت الوفية .. والأم الرؤوم ..

صراخ نسائي حاد يتعالى الى الأسماع ..

العيون تفتح بقوة لرؤية المشهد العظيم ..

انهم يشاهدون .. اليد الهزيلة ترتفع الى عنان السماء قبل أن تسقط نهائيا .. والفم الذابل يحشرج في عناء .. الشهادة ..

ــ أشهد أن لا ...

شهقة ... ثم النهاية ...

تبتلع الفضوات روحا طيبة .. تسافر بها ملائكة الرحمة الى حيث الرفاق .. وفي الصالة الواسعة ..

صوت مبحوح يجلجل الجدران .. بقوة فارعة تصيح العجوز خيرة :

ـ لماذا تركتني وراءك أيها الحبيب ...

ـ ولمن سأبقى ..

عسلة في : 1984/09/09

الفهـــرس

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ــ 1986



السعر في الجزائر : 25,30 د. ج.

المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر